من قصص

الجاسوسية في البلاد العربية



سليم طه التكريتي

سلسلة رقم ١

من قصص

الجاسوسية

في البلاد العربية

تأليف : سليم طه التكريتي

منشورات دار العصور بغداد ١٩٨٥

المقدمة

ظهرت الجاسوسية بظهور الحكومات والحاكمين على وجه البسيطة، وتطورت بتطور الصراع بين الاقوياء للتسلط على الغير من قبائل وشعوب، وتعاظم تأثيرها بتعاظم الحروب واتساع ميادين القتال في كل جزء من العالم.

وبعد ان كانت الجاسوسية في العصور القديمة تركز اهتمامها في كسب الحروب والصراعات، تطورت بتطور المدنية، فاخذت تستهدف التطلع الى معرفة اسرار المخترعات الحديثة او تحطيم تلك المخترعات حال ظهورها اذا لم يكن مستطاعا الكشف عن اسرار صنعها وتطبيقها.

ومع ان ميدان الجاسوسية في اول الامر كان يتركز في ميادين القتال وجبهات المعارك، الا انها غدت عنصرا رئيسا لا غنى عنه في السلم: بل ان مهمة الجاسوسية في عهد السلام كثيرا ما كانت تفوق مهمتها وخطرها ايام الحروب.

واذ كانت الجاسوسية تتعقب نمو القوى الحربية في الدرجة الاولى في كل دولة من الدول، فانها اخذت، في اوقات السلام على الاخص، تتعقب نشاطات الافراد الذين قد تبدر منهم بوادر تعتبرها انظمة الحكم المختلفة تهديدا لها، ولذلك تصبح الاحزاب والمنظمات السياسية والحرفية، ميدانا رحبا لتغلغل الجاسوسية فيها، والاطلاع على فعالياتها والخطط التي تعدها لتنفيذ تلك الفعاليات.

ويروى عن الفيلسوف الفرنسي الكبير «فولتير» انه كان يلاحظ بان صوت التأريخ يتمثل في خيط التخريبات التي تتصاعد عاليا. فخلف هذا «التخريب» التطوري للمجتمع المهذب، قد نمسك بخيط اكثر وهنا هي خطوات المخربين والمتآمرين وحابكي الدسائس والذين يؤثرون، قرنا بعد قرن، في مستقبل الامم الكبيرة والصغيرة على حد سواء، وفي ارواح الجماهير وسعادتها[1].

ويحدثنا التأريخ القديم ان «يوشع» بعث بجاسوسين له الى مدينة «اريحا» للتجسس فيها، وقد نزل ذانك الجاسوسان في بيت مومس هناك. وحين وصلت انباء ذينك الجاسوسين الى مسامع ملك اريحا وحاول القاء القبض عليهما، عمدت تلك المومس الى اخفاء الجاسوسين تحت كومة من الكتان على سطح دارها، ثم اعانتهما بعد ذلك على تسلق اسوار المدينة والخروج منها بسلام.

وحفل تأريخ الجاسوسية باخبار الجاسوسة اليهودية «دليلة» التي اغرت «شمشون» الجبار بجمالها حتى استطاعت قتله. وكانت هذه الجاسوسة قد استؤجرت من قبل خصوم شمشون الذين دفعوا لها اجرا كان يعادل احد عشر الف قطعة من الفضة في ذلك الوقت.

وتتجدد قصة الجاسوسية في مغامرات البطل الافريقي «هانيبال»

الذي يحاول بعض المؤرخين العرب، ان يمنحوه الجنسية العربية، اذ يزعمون ان اسمه الصحيح هو «هاني بعل» اي هدية الاله «بعل» الذي اشتهرت عبادته في بلاد العرب وعلى الاخص في الساحل الشرقي للبحر الابيض المتوسط. فقد ذكر بان خصم هانيبال، وهو «سبيو» الافريقي، قائد قرطاجنة، عندما وجد نفسه لا قبل له وجنوده بمواجهة الافيال التي استخدمها هانيبال في جيشه، دعا جواسيسه الى ان ينبثوا في صفوف قوات هانيبال ليعرفوا منها الامر الذي يخيف الافيال، ويردها عن المعركة. واستطاع اولئك الجواسيس ان يعرفوا بان الافيال لا تخشى السهام والحراب بقدر ما تخشى الضجيج المدوي، وهكذا استخدم سبيو ادوات تبعث اصداء مدوية فجن جنون الفيلة، وفقدت توازنها، وكرت هاربة وبذلك تم الانتصار على هانيبال.

وتعتبر الاشاعات وبثها في صفوف الجيوش المتحاربة، من اقوى اسلحة الجاسوسية في تحطيم معنويات الجيوش. ولقد استعمل الفرنسيون سلاح الاشاعة هذا في حربهم مع عرب الاندلس في المعركة الكبرى التي عرفت باسم معركة «بواتيه» او بلاط الشهداء. ففي غمرة المعركة اشاع الفرنسيون بانهم توجهوا الى معسكر المسلمين وبدأوا ينهبون ما غنمه المسلمون من كنوز. وكان من شدة الاسف ان صدق المسلمون تلك الشائعة فانقلبوا الى معسكرهم لحمايته من اعمال النهب الموهومة، وبذلك خسر المسلمون معركة بلاط الشهداء، وكان من المؤكد انتصارهم فيها، وانفتاح ابواب اوربا على مصاريعها امام المسلمين.

واستخدم جنكيز خان في حروبه نوعا جديدا من الجواسيس، هو الجاسوس التاجر، اي التاجر الدوار الذي يحمل سلعه ليصل الى معسكر العدو، ويفتح عينيه، ويرهف اذنيه ليرى وليسمع كل ما يفيد رئيسه

الذي يبعث به الى هناك. وهكذا فان حوادث الجاسوسية في التأريخ عديدة ولا مجال لحصرها في كتاب واحد.

على ان المؤسسات التي اشتهرت باعمال التجسس في العصر الحديث، وفي الوقت الحاضر هي مؤسسة الخدمة الذكية (الانتلجنس سرفس) في لندن، ووكالة الاستخبارات المركزية في امريكا، والتي يقال عنهما بان نشاطاتهما في العالم تفوق نشاطات مثلهما في بلدان اخرى. ويذكر «اندور تولي» احد اعضاء الوكالة المركزية الامريكية، ان مكتب الوكالة يقوم في ارض تبلغ مساحتها اكثر من خمسين هكتارا، على مقربة من «لانغلي» التي لا تبعد اكثر من عشرين دقيقة بالسيارة من «البيت الابيض» الامريكي، وان بناية المكتب مؤلفة من سبعة طوابق تضم اكثر من الف غرفة، وفيها قاعة تتسع لخمسمائة شخص، وفيها باحات تتسع لوقوف ثلاثة الاف سيارة، وقد بلغت نفقات انشاء هذا المكتب في حينه اكثر من ستة واربعين مليون دولار.

لسنا نريد من وراء هذه الافاضة الموجزة عن تاريخ الجاسوسية ان نلم بكل هذا التأريخ وحوادثه. ذلك لاننا اقصرنا البحث على بعض قصص الجاسوسية في البلاد العربية، ذلك لان البلاد العربية والشرق الاوسط برمته كان وما يزال يؤلف الموقع الرئيس لاعمال التجسس في الوقت الحاضر، سواء ما تعلق ذلك بالخطط التي يضعها حكام الشرق الاوسط لتطوير بلادهم، او التأثير على بعضهم البعض في مسار السياسة العامة والخاصة، وعلاقة اي منهم بالبلدان الاجنبية وبالمعسكرات والتحالفات الدولية.

بغداد ٣٠ حزيران ١٩٨٤

سليم طه التكريتي

(١) قصة الخدمة السرية «بالانكليزية تأليف ريتشارد ولمر روان ص (١) نيويورك ١٩٣٧.

الفصل الاول

اليهودي الذي فتح ابواب بابل امام الغزو الفارسي

اليهودي الذي فتح ابواب بابل امام الغزو الفارسي

كان التحالف بين الفرس واليهود قائما قبل التـأريخ الميـلادي بقرون عديدة، وكان هذا التحالف منذ ذلك الوقت وحتى هذه اللحظة، موجها ضد العراق بالدرجة الاولى، وضد الامة العربية والدين الاسلامي بصفة عامة. ولطالما تطوع اليهود لخدمة مآرب الفرس في العدوان، والتوسع في كل حقبة من حقبات التأريخ القديم والحديث، يدلل على ذلك الارتباط الوثيق القائم الآن بين طغمة «الخميني» التي تتستر على اعتداءاتها ومؤامراتها بالورقة الاسلامية، ودولة اسرائيل التي بادرت منذ اللحظة الاولى «لثورة الخميني» الى احتضانها، وشد ازرها لمهاجمة العراق.

ويحدثنا التأريخ القديم ان اقتحام الفرس الاخمينيين تحت زعامة رئيسهم «كورش» للعراق، في اواسط القرن الخامس قبل الميلاد واستيلائهم على «بابل» وتدمير حضارتها وعلومها،انما جرى في الاصل بفعل احد الجـواسيس اليهود الذين دبروا لـ «كورش» سبل الاستيلاء على بابل. ولقد اسهب «هيرودت» في تأريخه، في الحديث عن ذلك الجاسوس اليهودي، وفي ذكر الخطط التي اعدها لتحقيق اهداف الفرس في العدوان والتسلط. كان ذلك الجاسوس اليهودي يـدعى «زوبيروس» وقـد هرب من بـابل الى بـلاد فارس،وانضم الى جيش

كورش، واستطاع ان يحظى بمقابلته، وان يشرح له خطته في الاستيلاء على بابل. وتتلخص هذه الخطة، كما رواها هيرودت، في ان يعمد زوبيروس الى ان يجدع انفه، ويصلم اذنيه، ويشد شعر رأسه شدا وثيقا، ويضرب جسمه بالسياط حتى يتشوه جراء ذلك، ومن ثم يهرب زوبيروس الى صفوف البابليين مدعيا بان كورش قد فعل كل هذا به لانه، اي زوبيروس، نصح كورش بان لا يعمد الى محاربة البابليين، لانهم اشداء، ولان بابل مدينة حصينة وقوية لا سبيل لاية قوة لاقتحامها. ولا بد ان يصدق البابليون مقولة زوبيروس فيثقون به، ويستطيع بمرور الايام ان يتولى قيادة قواتهم المسلحة، لانه يعرف جيدا وسائل الفرس في الحرب ويلم بخططهم التي اعدوها للاستيلاء على بابل.

وفي الوقت ذاته تحدث زوبيروس الى «كورش» بان اتفق معه على تخطيط محدد، هو ان يبعث كورش بقوة من جنده لا تزيد عن الف رجل لمحاصرة بابل، وبعد ان يفعل ذلك بسبعة ايام يبعث كورش بقوة اخرى تعدادها الفي رجل تتخذ مواضعها عند بوابة «نينوى» من مدينة بابل. وبعد ان يمر عشرون يوما على ارسال تلك القوة، يقوم كورش بحشد قوة مؤلفة من اربعة الاف رجل عند البوابة الكلدانية من اسوار بابل. وكان الشرط الذي اشترطه زوبيرس على كورش هو ان لا يسلح كل تلك القوات التي يبعث بها الى بابل بسوى السيوف. وبعد ان ينقضي عشرون يوما على وصول آخر وجبة من القوات الفارسية، يطلب كورش الى جيشه بان يهاجم مدينة بابل على ان يضع كورش قوتين من الفرس عند بوابتي «بليان» و «كيسيان».

ولقد افصح زوبيروس لكورش، بانه، اي زوبيروس، سوف يتقدم القوات البابلية المدافعة عن بابل فيبيد الوجبة الاولى من القوات الفارسية، وعندئذ يرتفع نجمه عاليا لدى البابليين ويضعون ثقتهم فيه ويعينونه قائدا للقوات المدافعة، ويسلمونه حتى مفاتيح ابواب المدينة.

بعد هذا الاتفاق مع كورش، توجه زوبيروس نحو اسوار بابل وهو يتلفت الى وراء خائفا، ليضفي بذلك على نفسه صفة الهارب من الجيش الفارسي. واذ شاهده رجال المراقبة في الابراج القائمة على اسوار بابل لمراقبة

الحالة، حتى هبط البعض منهم ففتحوا احد الابـواب وادخلوه. وحين بـدأ التحقيق معه، وعن الغرض من قدومه افاد بانـه احد قـواد كورش، ولكن كورش قد عذبه بالشكل الذي يرونه فيه، وكشف لهم عن اثار السياط التي الهبت جسده، وانفه المجدوع، واذنيه المصلومتين، وان كورش فعل كل ذلك فيه لانه نصحه بان يرفع الحصار عن بابل، وان يرتد بجيشه الى بلاده، لانه لا امل له في اقتحام بابل واحتلالها. كما افضى زوبيروس لهيئة التحقيق بانه ملم بكل الخطط والوسائل التي اعدها كورش للقيام بغزو بابل.

انطلت حيلة هذا اليهودي اللعين، على البابليين، وصدقوا حكايته التي دللت عليها التشويهات التي اصيب بها، فوثقوا به وولوه قوة عهد اليها بالدفاع عن اسوار بابل. وبعد مدة قصيرة على توليه هذا المنصب قاد زوبيروس رجاله البابليين فـاحاط بـالالف جندي فـارسي الذين ارسلهم كـورش اول مرة، وابادهم ابادة تامة. وانتظر الى ان انتهت المدة التي اتفق عليها مع كورش فتوجه نحو القوة المؤلفة من الفي رجل فارسي، وابادهم عن بكرة ابيهم، واذ ذاك ارتفعت قيمته في نظر البابليين، وازدادت ثقتهم به، وغدا الثناء العاطر عليه ينطق به كل لسان في بابل.

وانتظر مرة اخرى انتهاء المدة المتفق عليها، فاتجه بقواته الى المكان الذي عسكر فيه الاربعة الاف فارسي، فاعمل السيف في رقابهم ومزقهم شر ممزق. كان من نتائج هذا الانتصار الاخير ان تعاظمت منزلة زوبيرس لدى البابليين، فعهدوا اليه بقيادة الجيوش البابلية كلها، ووضعوا مفاتيح المدينة في يديه.

شرع كورش، الذي حافظ على المخطط الذي اتفق عليه مع زوبيروس، يدفع جيشه لمهاجمة بابل من جميع الجـهات. وفي الوقت الذي حشد فيه البابليون كل قـواتهم لصد القـوات المهاجمـة، حل عيـد رأس السنة الجـديـدة فلم يلبث زوبيروس ان راح يطوف على القوت البابلية ويدعوها الى الاحتفال بالعيد، وان تكون في مأمن من العدو. وحين كانت اكثرية سكان بابل ترقص طيلة الليل في الشوارع والساحات ثملة، وكان الجند قد اكثروا من عب الخمور في

اجوافهم، وغلبهم النعاس وناموا بلا حراك، حينذاك بدأ زوبيـروس بتنفيذ خطته الجهنمية، ففتح ابواب بابل امام الفرس، فدخلوهـا واعملوا السيف برقاب سكانها، وما ان طلعت الشمس حتى كان الجزء الشمالي من بابل قد احتله الفرس، بينما كان سكان القسم الجنوبي منها ما يزالـون مخمورين وفي غمرة احلام النوم العميق الذي اصابهم.

على هذه الشاكلة سقطت بـابل واستبيحت للفـرس العلوج، فنهبت قصورها ومعابدها ونقلت كنوزها بما في ذلك تماثيل الالهة الى بلاد فارس. وكان لا بد لكورش ان يكافئ اليهود في بابل عل ما قدموه من خدمات له، ولذلك اعلن لهم ان في مستطاعهم ان يغادروا ارض بابل الى اي مكان يقصدونه. ومنذ ذلك اليوم تعاظم التحالف بين الفـرس واليهود وظـل قويـا حتى هذه اللحظة.

مخطط مدينة بابل واسوارها

الفصل الثاني

لحمه

يقع في الفخ ولكن !!

لجمن يقع في الفخ ولكن!!

كان العراق، منذ بداية القرن السادس عشر، مطمحا عظيما للدول الاستعمارية الغربية وعلى الاخص منها بريطانيا ، وذلك بالنظر لما وهبه الله لهذا البلد الكريم من بركة الثراء المطمور في باطن الارض وفي ظاهرها. ولذلك بدأت في مطلع ذلك القرن حركة استكشاف واسعة لمناطق العراق تمثلت في انصباب العشرات من المغامرين الاوربيين في الدرجة الاولى آنذاك، في صفة تجار، ورحالين، ومنقبين عن الاثار، ومبشرين بالمسيحية، والنظم الغربية. وكان طبيعيا جدا ان اولئك المغامرين كانوا يتألفون في الدرجة الاولى من اعضاء منظمات التجسس في بلادهم.

وكانت الغلبة بين هؤلاء المغامرين من الانكليز الذين كثر عددهم بصفة ملموسة في بداية القرن التاسع عشر، وقبل قيام الحرب العالمية الاولى. كان من بين هؤلاء المقدم «صون» الذي جعل من شمالي العراق ومنطقة حلبجة والسليمانية، بصفة اخص، مختبراً لنشاطاته التجسسية ومغامراته فيها ثم جاء من بعده ومن قبله رفاق له في صفة، رحالين ومنقبين عن الاثار وما شاكل ذلك. وكان واحدا من هؤلاء هو «لجمن» الذي وطأت اقدامه ارض العراق في سنة ١٩٠٨ قدم اليها من الهند حيث كان يعمل فيها ضابطا برتبة نقيب. اتخذ

لجمن المناطق الجنوبية من العراق مركزاً لفعالياته. كانت الاهداف الاولى لهذا الجاسوس المغامر، ان يصل الى «حائل» عاصمة حكم ابن الرشيد الذي عرف بموالاته للاتراك، وبتصديه الدائم لحركات عبد العزيز السعود الذي كان ينازعه السلطة في نجد وفي الجزيرة العربية كلها بتحريض من الانكليز ودعمهم المكشوف له.

كان لجمن يأمل من وراء مغامرته في الوصول الى حائل والالتقاء بابن الرشيد فيها، ان يكتشف مواطن هذا الحاكم ومدى قوة مواقعه وحصانتها، من ناحية، ومن ناحية ثانية ان يستعمل كل ما لديه من ذكاء وفطنة في استمالة ابن الرشيد الى جانب الانكليز، او ابعاده عن الاتراك على الاقل وعلى هذا الاساس قدم لجمن الى العراق، ووصل الى بغداد، وبعد ان تزود بالمعلومات المتوفرة لدى المقيم البريطاني، توجه الى كربلاء حيث حل ضيفا عند احد المتعاونين مع الانكليز فيها، فاكرم هذا ضيافته وسهل له مهمة سفره الى حائل، بان هيأ له قافلة تصحبه في مغامرته تلك.

كانت الدار التى نزل فيها في كربلاء تقع وسط بستان على ضفة احدى القنوات هناك. وكان الاتراك قد راقبوا لجمن منذ وصوله الى بغداد واخذوا يتعقبون خطواته الى ان وصل كربلاء. وقبل ان يبرح هذه المدينة، وضعوا خطة لاقتناصه والتأكد من هويته ومهمته. ولكن صاحب الدار كان اكثر ذكاءاً من الاتراك، فانه امر اصحاب القافلة التي سترافق لجمن في سفرته بان تنتظره في اقصى بستان من بساتين كربلاء في الجنوب على الطريق الذاهب الى الجزيرة العربية.

وقبل ان تشرق الشمس كان الجنود الاتراك قد تجمعوا عند باب المنزل الذي كان لجمن يقيم فيه. وعلم لجمن بذلك فاحتال على الجنود الاتراك بتوجيه من صاحب المنزل، ذلك انه اخترق البستان وهبط الى ارض القناة التي كانت جافة فيها، وسار في قاعها حتى وصل المكان الذي ينتظره رجال القافلة في جنوبي البلدة. ووصل لجمن الى حائل والتقى بالوصي على عرش ابن الرشيد وحاول التقرب اليه، ولكن هذا كان بدرجة من الذكاء لم يستطع معها ان تنطلي

حيل لجمن عليه فلما تأكد من مقصد لجمن زجره وطرده وبعث معه جماعة من قومه رافقوه في عودته الى شمالي البصرة، الى منطقة الخميسية.

تكررت مغامرات لجمن بعد ذلك في العراق فقبل نشوب الحرب العالمية الاولى بسنة قام برحلة واسعة داخل العراق، اذ تحرك من بغداد باتجاه الشمال فزار كركوك والسليمانية ودربندي خان ووصل من هناك الى منطقة بحيرتي «وان» «واورميا» ثم عرج نحو الحدود التركية فاجتازها ومنها وصل الى سوريا حتى بلغ مدينة دمشق.وبعد ان مكث هناك عدة ايام اتفق مع قافلة من البدو في العودة الى العراق مخترقا البادية السورية في طريق لم يألفه اصحاب القوافل من قبل، وفي سرعة قياسية حتى عاد الى بغداد ومنها غامر مرة اخرى بالذهاب الى الجزيرة العربية والوصول الى الرياض هذه المرة ومقابلة عبد العزيز السعود فيها.

وحين اندلعت نيران الحرب العالمية الاولى، وبدأ الانكليز يتقدمون لاحتلال العراق كان لجمن يسير في مقدمة الجيش الزاحف، وذلك بالنظر الى المعلومات المتوفرة لديه عن الطرق والاماكن، وللصلات الوثيقة التي اقامها مع بعض رؤساء العشائر وبعض الاشخاص المعروفين في جنوب العراق، فكانت مهمته هذه من اعظم المهمات التي يسرت للجيش البريطاني افتتاح العراق.

وقد حدث انه في الوقت الذي كان فيه الجيش البريطاني قد اكمل احتلاله لمدينة البصرة والمناطق المحيطة بها واتخذ سبيله نحو الناصرية والديوانية ان ذهب لجمن متنكرا كالعادة في زي بدوي الى الديوانية، لكي يهيئ اصدقاءه لملاقاة الجيش الانكليزي والتعاون معه. وحين كان يسير في احد شوارع الديوانية لمحه احد الضابط الاتراك فشك في امره، ذلك ان هذا الضابط وهو حسام نظمي رئيس دائرة التجسس التركية في العراق آنذاك، وجد ان ملامح هذا البدوي الذي اتقن فن تنكره، ليست من الملامح العربية المألوفة، وحينذاك امر القوة المرافقة له بان تتعقب هذا البدوي وتلقي القبض عليه وتأتي به مخفورا الى المقر الذي كان يقيم ذلك الضابط التركي فيه.

كانت الاستخبارات التركية تعلم منذ زمن غير قصير بوجود لجمن ونشاطه في العراق، لكنها لم تكن لديها صورة له وهو بزيه البدوي، وان الصورة الوحيدة له كانت بملابسه العسكرية وبوجهه وذقنه الحليقين. وكانت احدى نسخ هذه الصورة موجودة لدى الضابط الذي القى القبض على لجمن. واذ ادخل لجمن عليه بعد اعتقاله طلب الضابط الى احد الحلاقين بان يحلق لحية لجمن وشاربيه، واذ ذاك ظهر وجهه مشابها تماما للصورة التي يحتفظ بها لديه، مما لم يدع اي مجال للشك في حقيقته. ونظرا لانعدام المواصلات السلكية واللاسلكية لدى الاتراك في ذلك الوقت فلم يستطع الضابط حسام الدين الاتصال عن هذا الطريق، بالقائد الذي يخضع له ليخبره بنبأ القاء القبض على الجاسوس الانكليزي لجمن، ولهذا اوثق وثاق لجمن، وبعث به الى القائد بصحبة شلة من الجند تحرسه اثناء الطريق. واذ كان مقر القائد يبعد بعض الشئ عن مدينة الديوانية ولا بد من قطع مسافة ما خارج المدينة للوصول اليه، فقد توجه الجند بالاسير الموثق لديهم الى مقر القائد. غير ان لجمن سبق له خلال سفراته المتتالية للعراق، وجولاته المتكررة في ربوعه، ان اوجد اصدقاء له في الديوانية، مثل اي مكان آخر زاره قبلا، وما ان وصل نبأ اعتقال لجمن الى اصدقائه هؤلاء، وكانوا من شيوخ احدى العشائر الشهيرة في الديوانية، حتى هبوا لنجدة لجمن، وانقاذه من المصير المحتوم الذي ينتظره. ولذلك بعث هؤلاء بجماعة من رجالهم المسلحين الى الطريق الذي سوف يمر فيه لجمن واسروه الى مقر القائد التركي، فتصدوا للجند المرافقين لهذا الجاسوس بالقوة وتبادلوا اطلاق النار معهم، وارغموهم على الفرار ثم اخذوا لجمن الى شيوخهم، وبذلك انقذوا حياته من موت محقق.[١]

(١) يجري الآن في بيروت طبع كتابنا «مغامرات لجمن في الجزيرة العربية والعراق» الذي ترجمناه عن كتاب الميجر براي الحاكم السياسي الانكليزي في كربلاء اثناء الاحتلال الانكليزي وينتظر صدوره قريبا وعنوان الكتاب الانكليزي «بطل من الجزيرة العربية» A. PALADLN OF ARABLA.



الفصل الثالث

الجاسوس اليهودي

الانكليزي الذي سلم امتياز نفط الاهواز الى الحكومة البريطانية

الجاسوس اليهودي الانكليزي الذي سلم امتياز نفط الاحواز الى الحكومة البريطانية

الاحواز اقليم عراقي خالص، وجزء لا يتجزأ من ارض العراق، منذ انْ وجدت هذه الارض العراقية في اعماق التأريخ. وقبل ميلاد السيد المسيح بعشرات القرون كان اقليم الاحواز العراقي هذا يمثل الامتداد الطبيعي ليس للارض العراقية حسب بل وللدولة الاكدية التي شادها الاكديون، ذوو الاصل العربي، ووطد اركانـــها القوية رائدهم الى المجد، الملك سرجون الاكدي.
ولكن المطامع الاستعمارية التي اخذ الغرب منذ منتصف القرن السادس عشر الميلادي، يتنافس على تحقيقها، ما لبثت ان صوبت انظارها الى اقليم الاحواز فراحت تسعى جاهدة للاستيلاء عليه وفصله عن امه بشتى الطرق والوسائل.
كان من بين الهبات التي وهبها الله لهذا الاقليم وفرة النفط الكامنة في اراضيه، ولذلك تطلعت انظار الاحتكارات النفطية العالمية منذ اواخر القرن التـاسع عشر الى هذا الاقليم والى مخزون النفط فيه، ودخلت فيما بينها صراعا خفيا وظاهرا في اكثر من جبهة واحدة لكي تحاول كل واحدة منها احتكار هذا الذهب الاسود لها وحدها دون سواها من المنافسين الاخرين لها.

كان «وليم دارسي» وهو شاب انكليزي مغامر دفعته مغامراته الى ان يقصد استراليا ليبحث عن الثراء فيها، وان يتحمل الاخطار والمكاره في سبيل ذلك. ففي مجاهل استراليا، وقع دارسي ـ عندما كان يحاول الكشف عن عروق الذهب في احد مسارب الانهار هناك ـ اسيرا في ايدي احدى القبائل الاسترالية المتوحشة، وكاد ان يلقي مصرعه على يد افراد تلك القبيلة، لكنه ما لبث بذكائه وفطنته ان اصبح صديقا محبوبا لكل فرد من افراد تلك القبيلة، وهكذا استطاع ان يتحرر من الاسر، وان يمضي قدما في مغامرته فاستطاع ان يعثر على الذهب في جبال المرجان باستراليا.

كان دارسي قد سمع الكثير عن اسطورة تتحدث عن تصاعد السنة اللهب في منطقة في اقليم الاحواز كانت تقوم عندها معابد عبدة النار من الفرس المجوس. ومع انه كان يعلم بان هذه النار التي كان المجوس يعبدونها قد خبت وانقطع اثرها منذ ان نهض في جزيرة العرب رجل عظيم اختاره الله لينشر في البشرية ديناً جديداً يقوم على اسس الصلاح والعدالة والحق، انه الدين الاسلامي الحنيف، وان هذا الدين قد اعتنقته ملايين الناس من سكنة نصف القارة الاسيوية واكثرية القارة الافريقية، وجزء غير قليل من اوربا، رغم ذلك كله فان دارسي كان يعتقد بان تلك الاعمدة من اللهب ما كان لها ان تتصاعد من جوف الارض هناك، لو لم تكن تلك الارض تطفو على بحر من النفط. وقد تأكد ظنه هذا بعدما اطلع على ما كتبه «المسيو دي مورغان» منقب الاثار الفرنسي، الذي امضى وقتا طويلا في اقليم الاحواز ينقب عن الاثار فيه، وعلى الاخص في مدينة «سوسة» عاصمة الاخمينيين.

وبدافع من هذه المغريات والحصول على المزيد من الثروة والشهرة شد دارسي رحاله الى الشرق، الى بلاد فارس واقليم الاحواز بالذات والذي تضافرت المساعي الاستعمارية من انكليزية وغيرها على ضمه الى بلاد فارس وفقا لحسابات مقبلة مدروسة دراسة جيدة. ومع ان دارسي ومن صحبه من مهندسين وعمال استأجرهم قد اضناهم البحث عن النفط، وانفق اكثر من نصف مليون باون، الا انه اخفق في مسعاه ذاك، فعاد ادراجه لا الى استراليا بل

الى لندن. وقد ظل طيلة الوقت الذي امضاه في العاصمة البريطانية وهو يحلم بتحقيق حلمه القديم، الذي راح يقض عليه مضجعه. وما هي الا فترة قصيرة حتى عاود دارسي مغامرته فاتجه الى الشرق، وحط رحاله في طهران، واستطاع ان يقابل الشاه ناصر الدين فيها، وان يفلح، بما ناله من مساعدة الانكليز الذين كانت لهم اليد الطولى في بلاد فارس آنذاك، في الحصول على وعد بامتياز من ذلك الشاه للبحث عن النفط والمعادن الاخرى. ومع ان حصوله على هذا الامتياز لم يكن عسيرا ولكن الطبيعة اعسرت مهمته، وحطمت خيالاته، لانه جاب الصحارى والادوية والجبال، ونقب في الاراضي التي تقوم فيها هياكل عبادة النيران، فلم يوفق في مسعاه ذاك

اخذ المال الذي كان يحتفظ دارسي به، ينضب بسرعة وهو في احضان تلك البلاد الغريبة العجيبة ولذلك عاد الى لندن فاستطاع ان يقنع بعض المتمولين بالمساهمة معه في تأليف شركة للبحث عن النفط في بلاد فارس ولكن الاخفاق لازمه، والافلاس اخذ يحيق به، وتبخر رأسمال الشركة ولكن صاحب الجلالة «النفط» لم يخرج من مكمنه في جوف الارض.

واذ استولى عليه القنوط عاد مرة اخرى الى لندن ينشد العون والمال ولكن المتمولين أمسكوا ايديهم عنه، واتهمه المساهمون في شركته بالسرقة والدجل، وسخر منه الآخرون وراحوا يتندرون عليه، وازاء ذلك لم يطق دارسي المكوث في لندن فعاد الى بلاد فارس وهبط العاصمة طهران، وتخلى عن موضوع النفط ليحاول الثراء عبر طريق مشروع آخر، انه مشروع انشاء خط حديدي في فارس نجح في انشائه فحقق له الثراء واذ ذاك عاد حلم النفط اليه مجددا وراح يتحدث الى الشاه عن الثراء الذي ستصيبه حكومته وبلاطه في الدرجة الاولى، اذا ما نجح دارسي في العثور على النفط.

وتحت هذا الاغراء الجديد، تلمظ الشاه وهو يصغي الى ما يقصه عليه دارسي عن النعيم المقبل، وعن العشرين الف باون التي سيضعها في يديه بمثابة هدية اولى ليس الا، في الوقت الذي كان فيه الشاه يمني نفسه، بعد ان يتسلم

هذه الهدية، بتمضية عدة اشهر في اوربا وبالفوز بجنان النعيم والملاذ فيها. وهكذا حدث وفاز دارسي بذلك الامتياز العتيد الذي لم يخسر فيه سوى العشرين الف باون التي سلمها الى الشاه مقدما، وبالحصة الضئيلة من ارباح النفط التي لا تزيد نسبتها عن ست عشرة في المائة، يجري دفعها في كل سنة.

بدأت شركة دارسي اعمالها في البحث عن النفط في شمال بلاد فارس وفي جنوبيها وطال امد البحث والتنقيب وطال الانتظار دون جدوى، واخذ المال لديه يتبخر بسرعة. وفي ذات ليلة واذ كان دارسي مهموما ومستلقيا في فراشه يفكر فيما وصلت اليه جهوده من فشل، طرق باب الدار التي يسكنها، وحين فتحت الباب دخل عليه رسول من عمال الشركة التي كانت تنقب في منطقة «تستر» (ششتر) ليزف اليه بشرى تدفق النفط من بئر في تلك المنطقة. لقد حدثت المعجزة وتدفق النفط على مقربة من «سرخ» في منطقة «مسجدي سليمان» مقر ابار نفط الاحواز، واذ ذاك اعلم دارسي بقية فرق البحث في شمال فارس، بان توقف اعمالها هناك وتتجه بمعداتها الى مسجدي سليمان وتشارك زميلاتها في استغلال النفط هناك.

طار دارسي راجعا الى لندن ليبشر شركاءه السابقين الذين اتهموه بالجنون والاحتيال بما حققه، وليصفع المتمولين الاخرين الذين رفضوا امداده بالمال بل وسخروا منه ومن احلامه. شاع خبر العثور على النفط في الاحواز في اوساط لندن السياسية والعسكرية والمالية، فتيقظت المطامع في النفوس، وملئت القلوب بالحقد والحسد، وكان في مقدمة هؤلاء اعضاء شركة نفط برما الذين حاولوا التفاهم مع دارسي على ان يشاركوا في استغلال النفط الذي عثر عليه في مسجدي سليمان.

وفي الوقت ذاته نشطت امارة البحر البريطانية، التي عرفت اهمية استعمال النفط كوقود للسفن، ومحرك للالات والمصانع، لان تضع يدها ولو على حصة ضئيلة من امتياز دارسي على الاقل، ان لم يكن كله بالذات. لم يكن امام امارة البحر البريطانية سوى ان تلجأ الى الاستخبارات البريطانية (الانتلجنس سرفس) تستعين بها على تحقيق امنيتها في الظفر بالامتياز العظيم.

استقل دارسي البحر من الخليج العربي، وهو يمني نفسه براحة طويلة وهنيـة يقضيها في استـراليا. وحـين رست السفينة التي كـانت تقله في ميناء الاسكندرية في مصر، وحاول النزول منها حتى استقبله جمع كبير من المساومين من رجال شركات النفط، الانكليزية والامريكية والهولندية وغيرها الذين كانوا يحاولون شراء الامتياز الذي حصل عليه من شاه فارس باي ثمن كان. اجزل المساومون العطاء وتزايدوا في الثمن المدفوع، ولكن دارسي ظل صامدا بوجه كل تلك المغريات والمساومات.

كانت مصلحة الاستخبـارات البريـطانية (الانتلجنس سـرفس) التي وضعت خطتها لوضع يدها على امتياز دارسي بكـل وسيلة. قد علمت من العمال والمهندسين الذين زاملوا دارسي في البحث عن النفط وفي مـد سكة الحديد في بلاد فارس، الافكار التي كان دارسي يؤمن بها، والقيم التي كان يتحلى بالاحتفاظ بها. لقد علمت الاستخبارات ان دارسي كان من المتشبعين بالتعاليم التي تبشر بالعدل والاخاء بين البشر، ومن المؤمنين بقدرة الله وشدة المصائب التي ينزلها الله بمن يعصون اوامره، وان خير ما يفعله المرء، هو ان ينقطع الى الاعمال الطيبة، التي يتقرب بها الى الله لكي يعفو عنه، ويـظفر بغفرانه. وعلى هذا الاساس احكمت الخطة لاستغلال اسم المسيح وما يقول به من تحقيق العدل والمساواة لاهدافها الخاصة.

ندبت الاستخبارات لهذه المهمة رجلا من انشط جواسيسهـاواكثرهم ذكاء ونباهـة، انه الجـاسوس اليهـودي «روزن بلوم» الذي تخفى تحت اسم الكاهن «سدنى ريلى» الذي سبق له العمل مع النقيب «هيل» الانكليزي عندما قامت الثورة الشيوعية في روسيا سنة ١٩١٧، واصبح المساعد الايمن لوزير البحرية ونستون تشرتشل في مغامرات النفط، والذي اختفى عن الانظار نهائيا سنة ١٩٢٦.

كان «روزن بلوم» قد عرف من دائرته، «الانتلجانس سرفس» بموعد سفر دارسي من الخليج العربي في طريقه الى استراليـا. كانت البـاخرة التي غادرت ميناء الاسكندرية تضم خليطا من البشر المتنافر دما وفكرا ولذلك شعر

دارسي بالسأم والضجر فامضى اليومين الاولين من رحلته منطويا على نفسه لا يجلس الى احد من المسافرين ولا يكلم ايامنهم. وفي زاوية اخرى من السفينة قبع راهب يرتدي مسوحه ويقضي ليله ونهاره في الصلاة، وقراءة الانجيل، وقد ترك الباخرة ومن فيها، ولم يكن الراهب سوى الجاسوس «روزون بلوم» نفسه وسرعان ما انجذب دارسي الى هذا الراهب فاخذ يجلس اليه ويتحدث معه، وطفق يشكو اليه حماقة الناس، وابتعادهم عن تعاليم الله تعالى، وتكالبهم على الملذات الدنيوية الزائلة. وكلما شكا اليه دارسي شيئا من هذا كان الراهب يرد عليه بفصل من الزبور، واخر من رسائل القديس يوسف وغيره من القديسين. ·واطمأنت نفس دارسي، وعاوده هدوءه فراح يحدث الراهب عن السنوات الاربع عشرة التي امضاها في صحارى بلاد فارس وقفارها، في الوقت الذي شرع فيه الكاهن يتحدث هو الآخر عن مغامراته في مجاهل افريقيا بين الوحوش وبين البشر الذين يأكلون لحوم البشر، كل ذلك في سبيل نشر تعاليم السيد المسيح، وطمعا في الفوز برضوان الله عنه، وهكذا استغرقت هذه الاحاديث الورعة كل الطريق الى ان وصلت السفينة الى ميناء مرسيليا الفرنسي.

وهناك واصل الاثنان سفرتهما فاستقلا باخرة جديدة الى نيويورك وسكنا في مقصورة واحدة في ذات السفينة وتابعا حياتهما التي سلكاها في الطريق من مصر الى فرنسا. الكاهن التقي يقرأ الانجيل والزبور، والمهندس العجوز «دارسي» يصغي الى تلك القراءة والدموع تنهمر من عينيه، وهو يستقبح الدنيا وما فيها ويقول في نفسه ما هي قيمة العالم باسره مقابل كلمة واحدة تنطلق من فم الراهب القديس.

على ان دارسي لم يتحدث عن اكتشاف النفط وعن الامتياز الذي حصل عليه من شاه بلاد فارس، الى ان اصبحت الباخرة تقترب من ميناء نيويورك. وفي الوقت ذاته بدأ الراهب يشك في مقدرته على انتهاب ذلك الامتياز، وبدأ اليأس يعصر امعاءه عصرا. اتراه يترك فريسته تفلت من يده، ويعود بالخيبة

والخسران؟ ولكن المعجزة تحققت عندما سأل دارسي صديقه الراهب عن احسن خدمة يقدمها الى السيد المسيح وتعاليمه.

اظهر الراهب اضطرابا، وفكر مليا، ثم لمعت عيناه وكأن وحيا سماويا قد هبط عليه، ثم ما لبث ان قال للعجوز «حول امتيازك الى احدى بعثات المبشرين، فيذهب هؤلاء الى بلاد فارس على اساس انهم موظفون في شركة صناعية لاستخراج النفط، لكنهم في الواقع يكونون مبشرين بتعاليم الدين المسيحي، اي منفذين للهدف الذي تصبو اليه».

وسرعان ما ابرز الراهب ورقة وضعها على الطاولة امام دارسي الذي كتب فيها تنازله عن امتياز البحث عن النفط في بلاد فارس باسم رفيقه الكاهن «سدني ريلي» رئيس جمعية التبشير المسيحية. واذ توقفت الباخرة في رصيف نيويورك نزل الاثنان من الباخرة، وافترقا، فسارع الكاهن الى دائرة البرق في نيويورك وطير البرقية التالية.

لندن: داوننغ ستريت رقم ١٠

لأجل الامير تم التوفيق

التوقيع سدني

وشرح البرقية هو: لندن دائرة الانتلجنس سرفيس ومقر وزارة الخارجية البريطانية. بلغوا امير البحرية بان امتياز دارسي قد اصبح في حوزة الحكومة البريطانية.



الجاسوس سدني رايلي او روزنبلوم

الفصل الرابع

سارة جوان

صديقة لورنس في التجسس على الاتراك في الحرب العالمية الاولى في فلسطين

سارة رجوان صديقة لـورنس في التجسس على الاتـراك في الحرب العـالمية الاولى في فلسطين

لم يكن «لورنس» الذي اضفى عليه الكتاب الغربيون نعوت البطولـة والذكاء والعبقرية مجرد جاسـوس من دائرة الانتلجـانس سرفس الانكليـزية حسب، وانما كان في ذات الوقت من اعظم عملاء الحركة الصهيونية وقد جند نفسه لخدمة الصهيونية منذ ان كان طالبا في جامعة اكسفورد. وكانت الرحلة التي قـام بها لـورنس في نهاية شبـاط سنة ١٩١٤، مـع المستشرق اليهـودي والجاسوس الخطير في الانتلجانس سرفس، الدكتور «هوغارت» الى فلسطين تحت ستار دراسة مخططات القلاع التي اقامها الصليبيون في فلسطين، تستهدف مدى الامكانيات التي يستطيع بها اليهود ان يتغلغوا فيها، تمهيداً لانشاء دولة اسرائيل. ففي تلك الرحلة تعرف لورنس، الى اخطر جاسوسة يهودية صهيونية كانت تعمل لخدمة الصهيونية والاستعمـار الانكليزي معـا، هي الفتاة التي عرفت باسم «سارة ارونسون او اهرون» واشتهرت خلال الحرب العالمية الاولى باسم «سارة رجوان» والتي اهدى اليها لورنس بعد تلك الحرب، كتابه المعنون «اعمدة الحكمة السبعة» وما تزال كل الطبعات السابقة واللاحقة لهذا الكتاب

تحمل ذلك الاهداء البسيط الذي يقول « الى س. أ. » ولقد بقي هذان الحرفان لغزا من الالغاز الى ان كشفت عنه كاتبة انكليزية تدعى «انيتا انجل» وذلك بمقال نشرته في مجلة «نيوستيتسمان اند نيشن» اللندنية الاسبوعية، ذات الملامح الصهيونية، وذلك في عددها الصادر في الثاني والعشرين من شهر كانون الثاني سنة ١٩٥٦ تحت عنوان «س. أ. المحير» واليك ايها القارئ، قصة «سارة» هذه بالشكل التي روتها «انيتا انجل» في مقالها ذاك.

قالت الكاتبة ان هذا الاسم يطلق على واحدة من اعظم النساء الجاسوسات في التأريخ التي بقيت خارج نطاق الكتب التأريخية نوعا ما، والتي لقيت مصرعها في اخر شهر من شهور سنة ١٩١٧ في مستعمرة «زخرون ياكوف» الجبلية في فلسطين.

كانت تدعى «سارة اورنسون». وكانت تتزعم شبكة تجسس استطاعت ان تزود الجنرال اللنبي بمعلومات دقيقة وقيمة عن الجيش التركي في فلسطين وسوريا ولبنان، وكانت هذه الشبكة الجاسوسية هي التي افسحت الطريق امام دخول الجيش الانكليزي الى فلسطين. كانت تلك الشبكة تتألف من عشرين شاب تحت امرة «سارة»، وقد اعتمد الجنرال اللنبي على هذه المنظمة في انقاذ حياة ثلاثين الف جندي بريطاني.

كانت سارة ذات قابلية لمقارعة الخطوب والاقدار. ومع انها كانت زوجة لتاجر ثري، الا انها نبذت الثراء والنعيم، وكرست حياتها لمحاربة القوات العثمانية. كان ابواها من الذين اسسوا مستوطنة «زخرون ياكوف» وهي اقدم مستعمرة يهودية في فلسطين انكب ابناء هذه الاسرة السبعة على انشاء تلك المستعمرة وزراعتها وتنظيمها. وشاركت «سارة» اخوتها واخواتها في ذلك الجهد الشاق. كانت تجوب الفيافي والقفار في فلسطين ليل نهار ممتطية صهوة جوادها العربي الادهم، وكانت على الدوام تثق بذكائها السريع الذي يجنبها المخاطر. وفضلا عن ذلك فانها كانت تتحدث التركية والعربية بطلاقة تامة كاي من المواطنين المحليين الذين كانوا يتحدثون بهاتين اللغتين.

كانت قد تزوجت وعاشت في اسطنبول في الوقت الذي انفجرت فيه الحرب العالمية الاولى. وفي رسائل سرية بعثت بها الى أسرتها التي تقطن مستعمرة «زخرون ياكوف» في فلسطين، بدأت سارة توجه افراد الاسرة، الذين يتحدثون بالعبرية والفرنسية، الى الطرق التي ينبغي لهم ان يسيروا فيها. ففي رسالة بعثت بها الى اختها وكتبتها بالفرنسية كانت تسألها «هل تهتمين بالتطريز الانكليزي؟ هناك اشياء مهمة لا بد مشاهدتها على «الكرة»!

ولقد كتبت سارة رسالة اخرى الى شقيقتها بالفرنسية، واستعملت في ذلك الكلمة الفرنسية التي تعني «الشارع المتسع، وقد اتضح ان هذه الكلمة الفرنسية ذاتها تعني باللغة العبرية «الطابع» وهكذا، وتحت «الطوابع» كتبت سارة معلومات دقيقة عن المذابح التي وقعت بين الارمن، واتصلت باسرتها في مستعمرة «زخرون» متسائلة عما يمكنها عمله في حالة حدوث مذبحة مماثلة للطائفة اليهودية في فلسطين.

وعلى اساس هذه الرسائل قرر اخوة سارة واخواتها، واصدقاؤهم بان خدمتهم القيمة لليهود انما تكمن في التجسس لحساب الانكليز، وتسريع عملية دخولهم الى فلسطين. اختار هؤلاء لمنظمتهم اسم «نيلي NILI وهي الحروف العبرية الاولى من العبارة التي وردت في التوراة، والتي تقول ان «آله اسرائيل لن يكذب».

كان مؤسس هذه المنظمة السرية هو «هرون ارونسون» شقيق «سارة» الذي حصل على شهرة عالمية في علم النبات، والذي امتاز بالقوة والذكاء الخارقين، والذي جعله عمله شخصا شهيرا ومعروفا في ارض فلسطين، بما في ذلك صحراء سيناء التي تتاخم الاراضي التركية في فلسطين الى مصر الخاضعة للبريطانيين.

كانت معرفة «هرون» الفريدة بالاتراك وبما لديهم من قوات، معرفة لا تبارى. وكان بالاضافة الى ذلك، مقتنعاً، منذ امد بعيد، بانه في بريطانيا يكمن الامل الوحيد لانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين.

غادر هرون ارض فلسطين، بطرق خفية الى لندن في سنة ١٩١٦، حيث قرر هناك ان يزيل كل الشكوك التي كانت تحيط بوزارة الحرب البريطانية، وقد انتهى به المطاف الى قيادة الجنرال اللورد النبي، حيث عهدت اليه مهمة ادارة اعمال التجسس لحساب الانكليز في فلسطين. وعندما اختفى «هرون» في السلك العسكري، انتقلت قيادة منظمته الى شقيقته «سارة» والى جاسوس يهودي مغامر آخر هو «ابسالوم فاينبرغ» الذي قام باعمال صورت بصور الابطال الذين تذكرهم القصص الخيالية مع انه لم يكن قد تعدى الخامسة والعشرين من عمره.

كان «فاينبرغ» فارع الطول، جميل الصورة، بالغ الذكاء، ينظم الشعر، ويلحن الموسيقى، ومغامرا شجاعاً لا يهاب، مما جعل العرب يعتبرونه واحدا منهم ويطلقون عليه اسم «الشيخ سالم».

لم ترد اية معلومات عن هرون، وهذا ما كان يزيد من مخاوف فاينبرغ وخبله. كان الاتصال الوحيد الذي خططه فاينبرغ لايجاد ارتباط ودي، وتفاهم، مع احد الضباط البحريين البريطانيين في ميناء «بور سعيد» قد انهار. ولم يكن «فاينبرغ» قد عرف ذلك، لكن الضابط الانكليزي الذي اتصل به وهو العقيد «وولي» المنقب الشهير للاثار في العراق فيما بعد، قد وقع اسيرا بايدي الاتراك، ولم يظهر الا بعد ان انتهت الحرب العالمية الاولى، حيث باشر باعمال التنقيب في العراق، وذاع صيته باكتشاف المقبرة الملكية للسومريين في «اور».

استطاع «ابسالوم فاينبرغ» فيما بعد ان يتنكر في زي بدوي عربي، وان يجوب مجاهل صحراء النقب التي تمتد من بئر السبع الى الجنوب، في محاولة منه للتسلل الى داخل الخطوط التركية هناك وتجديد الاتصال مع الانكليز في مصر، ولم يظهر له من اثر بعد تلك المحاولة.

وقعت كل اعباء منظمة «نيلي» اليهودية للجاسوسية على عاتق «سارة» وحدها. وابتداءاً من شهر كانون الثاني سنة ١٩١٧ الى وفاتها في شهر تشرين الاول، اي طيلة تسعة اشهر، راحت هذه المرأة المكتنزة الجسم ذات الصوت الناعم الحلو، تكرس كل نشاطها لانشاء نواة لحركة تجسس جديدة وواسعة النطاق جدا، تمتد من «بئر السبع» في الجنوب، الى الشمال في بيروت في لبنان،

والى دمشق في سوريا. ولم تكن هناك طيلة هذه المدة اية لحظة، سواء في النهار ام في الليل، كانت فيها «سارة» متحررة من الخطر او المداهمة.

وحتى قادة اليهود في فلسطين آنذاك قد خشوا ان تكون عاقبة حركة «سارة» هذه وبالاً عليهم، ذلك لان اية بادرة خاطئة قد تبدر من هذه المنظمة التي لا تضم اكثر من عشرين شابا وشابة، قد تؤدي الى ابادة مستعمرة «زوخرون ياكوف» برمتها، بل ابادة اليهود في كل مكان يخضع للسيطرة التركية.

ولكن سارة كانت عنيدة في قراراتها، وفي اعمالها، وكانت ترفض حتى طلب بعض الشباب اليهودي بالانضمام الى مؤسستها، ولذلك فلم يزد عدد هذه المنظمة عن العشرين عضوا.

اتصلت سارة بطبيب له اهميته في احد المستشفيات العسكرية التركية. واستطاعت بذكائها واغرائها ان تضم ذلك الطبيب الى منظمتها.

لم يكن اعضاء هذه الشبكة اليهودية يبتغون المال من وراء عملهم ذاك. كان كل قرش يتم انفاقه يقدم به حساب الى مقر القيادة العسكرية البريطانية في القاهرة، قبل ان يتم دفع تخصيصات اخر الى الشبكة. ولقد سعى احد الضباط البريطانيين الذين عملوا مع «هرون» شقيق «سارة» في القيادة العسكرية في القاهرة، بكل ما توفرت لديه من معلومات، ان يجري مقارنة بين النقود التي انفقتها منظمة «نيلي» والنقود التي انفقها لورنس، وعن اهمية النتائج التي نتجت عنها، ولا بد من ان تظهر مثل هذه الوثيقة الى النور في يوم من الايام.

ادى وجود هرون في القاهرة، بعد مرور سنتين من بدء الحرب، الى تعاظم نشاط منظمة «نيلي» بمنتهى السرعة. ففي الوقت الذي بدأت فيه الاستعدادات للحملة البريطانية على فلسطين، اخذت الطلبات تنهال اكثر فاكثر على «سارة» وعلى منظمتها. لقد استطاعت سارة هذه ان تزود الجنرال «اللنبي» بمعلومات واسعة ومفصلة عن كل فرقة من فرق الجيش التركي في فلسطين وفي سوريا، وعن عدد الاسلحة التي تملكها هذه الفرق، والمواقع التي تتمركز فيها.

كان الفريق «مكدونالد» الذي رأس دائرة التجسس العسكري

البريطاني اثناء الحرب، قد ذكر في خطاب له القاه في معهد المدفعية الانكليزي في شهر كانون الاول سنة ١٩٢١، «ان اللورد اللنبي كان يعرف من جواسيسه في فلسطين كل تصرف، وكل حركة كان يقوم بها العدو، ولهذا استطاع اللنبي ان يحرك يده بشكل مؤكد، ولذلك غدا النصر في مثل هذه الاحوال امرا محققا».

كانت سارة تبعث بمعلوماتها الى القيادة الانكليزية في القاهرة، عن طريق احدى البوارج البريطانية التي كانت ترحل من ميناء «بور سعيد» مرة واحدة او مرتين في كل شهر. وكانت النافذة في الغرفة التي تسكنها «سارة» في البيت الشامخ الذي يقع على قمة جبل في مستعمرة «زخرون»، كانت هذه النافذة تستخدم بمثابة دليل، فاذا كانت النافذة مفتوحة تسللت البارجة البريطانية ليلا لتلقى مراسيها على مسافة من الساحل الذي تقع عليه مدينة «عثليت» واذ ذاك يسبح اعضاء الشبكة الجاسوسية الى البارجة، وهم يحملون معهم الرسائل السرية لايصالها الى هناك.

ما ان تم انشاء هذه الشبكة التجسسية حتى راح اخوها «هرون» يلح على اخته «سارة» بان تترك فلسطين وتأتي الى القاهرة. وكذلك الح الجنرال «اللنبي» هو الاخر، بان تفعل ذلك، لان تقدم الجيش الانكليزي كان سريعا، وان الخطر يتعاظم عليها وعلى رفاقها في المنظمة كل يوم، ولكن سارة كانت ترفض ذلك دوما. وقبل ان تمضي اسابيع طويلة بدأ شبح الفناء يطل على منظمة «نيلي» ذلك ان واحدة من حمام الزاجل التي ارسلتها المنظمة من «عثليت» الى القاهرة، قد اختلطت مع حمامات يملكها احد الضباط الاتراك، الذي يقيم في مدينة «قيسارية» على بضعة اميال من الشاطئ. وعن طريق تلك الحمامة الضالة عثر ذلك الضابط على مفتاح الرسائل السرية للشبكة. وما ان تأكد الاتراك من وجود منظمة للتجسس تعمل في المنطقة حتى شرعوا بالبحث عنها في المستعمرات المجاورة ولم يمض وقت طويل حتى وصلوا الى مستعمرة «زخرون ياكوف».

ادركت سارة ما حدث، واستطاعت ان تتلف كل ما لديها من الوثائق والمستندات ثم انبأت افراد منظمتها بان يتواروا عن الانظار، وراحت هي واحد اخوتها، وزميل لها، وابوها البالغ من العمر سبعين سنة، ينتظرون مجيء

الاتراك الى دارها. لقد ظهر زملاؤها الذين اختفوا عن الانظار امام الاتراك للتحقيق معهم، ولكن احدا منهم لم يدل باية معلومات، واخيرا تقرر ارسالهم الى مدينة «الناصرة» لاجراء تحقيق جديد معهم.

طلبت «سارة» قبل الرحيل الى الناصرة، اذناً بان يسمح لها بالذهاب الى بيتها لتغيير ملابسها الملطخة بالدماء، فسارت موثقة بالحبال لآخر مرة عبر طرقات «زخرون ياكوف».

وفي الوقت الذي كان فيه الحرس عند باب الدار، دخلت سارة الى غرفتها وكتبت رسالة اودعتها التعليمات التي يجب ان تطبق لمساعدة العوائل التي سوف تتلقى الحرمان والموت بسبب منظمة «نيلي». وبعد ان اكملت كتابة هذه التعليمات اخرجت مسدسا كانت تخفيه وراء جدار سري في الغرفة واطلقت النار على نفسها. ارادت ان تنتحر ولكن قواها خانتها في آخر مرة فبدلاً من ان تموت اصيبت بجروح قاتلة ظلت تعاني وطأتها مدة ثلاثة ايام قبل ان تلفظ انفاسها الاخيرة في الوقت الذي توفيت فيه «سارة» كان الانكليز قد نزلوا ميناء «يافا» وبعد ذلك الحادث بثلاثة اشهر تسلم «الجنرال اللنبي» استسلام مدينة القدس.



سارة اهدون (سارة رجوان)

الفصل الخامس

راعي الإبل
الذي سهل للإنكليز الاستيلاء على الكويت

راعي الابل الذي سهل للانكليز الاستيلاء على الكوت

اندس بين قبائل البدو التي كانت تجوب جنوبي العراق، قبل ان تبدأ الحرب العالمية الاولى، فتزيا بزيهم، والف حياتهم، وشاركهم في مأكلهم وملبسهم وراح يحضر كل مجالس السمر والانس لديهم. ووثق به القوم، ولم يخالجهم اي شك في هويته، سيما وانه قد اخترع لهم حكاية صدقوها بيسر، اذ زعم انه من العشيرة الفلانية في مشارف الجزيرة العربية، وانه هجر عشيرته وترك اهله وهرب ناجيا بجلده بعد ان قتل احد الشبان عقب شجار نشب بينهما. واذ سأله القوم عن الحرفة التي يحترفها اجاب بانه كان يرعى الابل لدى ابناء عشيرته، فاوكل اليه هؤلاء القيام بذات المهمة، واخذ يخرج بالابل كل صباح الى حيث تجد المرعى ثم يعود بها بعد المساء، واستمر على هذه الحال اياما واسابيع وشهورا.

وكان في كثير من الاحيان يقتاد ابله بعيدا عن مقر العشيرة التي نزل عندها، ويطوف بها في انحاء تكتنفها الزروع وقنوات الري وحتى الاهوار الى درجة انه اصبح ملما بتلك الاماكن ومواقعها الماماً لم يعرفه حتى الساكنون في تلك الانحاء انفسهم.

وقعت الحرب العالمية الاولى، وانطلق الانكليز قادمين من الهند وبريطانيا الى العراق لاحتلاله لانه كان يمثل هدفهم الاول من وراء دخول تلك الحرب، بسبب ما يزخر به من ثروات وما يؤلفه من اهمية ستراتيجية سيما وانه

كان يمتل اقصر طريق للوصول الى الهند درة التاج البريطاني في ذلك الوقت.

ومع ان الحرب قد وقعت، واخذت الجيوش الانكليزية تتوغل في ارض العراق قادمة من الجنوب، الا ان صاحبنا «الجمال» - بتشديد الميم - بقي يمارس مهنته لدى العشيرة التي لجأ اليها، ولم يحاول ان يلتحق بالقوات الانكليزية القادمة، كما كان يفعل ذلك بعض الجواسيس من امثاله.

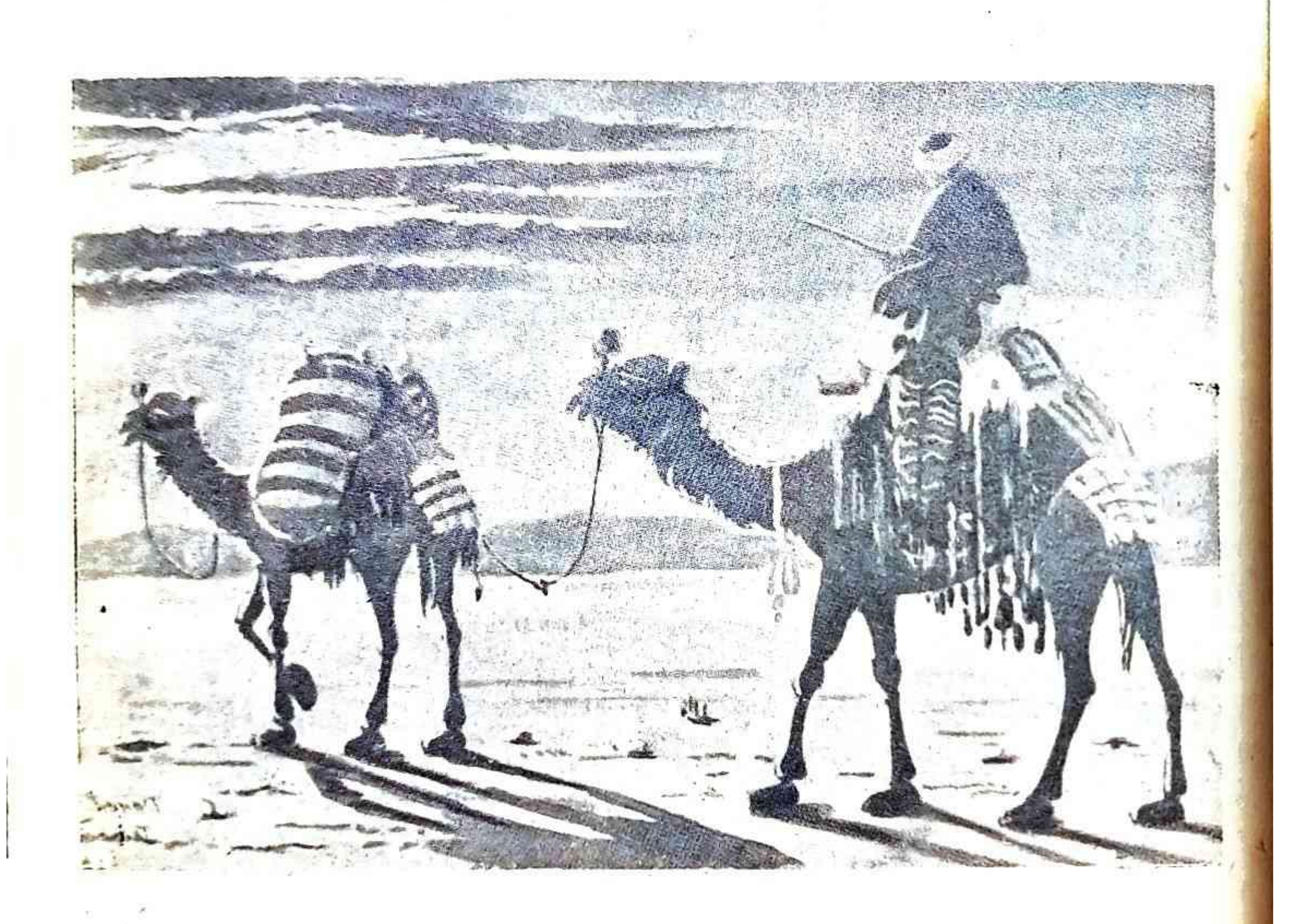
اخذت الارتال الانكليزية تواصل زحفها دافعة الجيوش التركية المنهزمة امامها نحو الشمال، حتى وصلت تلك الارتال الى العمارة وتجاوزتها في طريقها الى الكوت، كان الاتراك قد هيأوا لهم موقعا دفاعيا حسبوه قويا لانه كان يستند الى هور «الشويجة» الذي يقع شمالي الكوت كان الموسم آنذاك موسم الفيضان وقد طغت مياه دجلة على الاراضي المنخفضة جنوبي الكوت، وحواليها، بحيث لم يعد هنالك من مجال امام القوات البريطانية لكي تواصل زحفها وتقدمها.

كان راعي الابل قد الم من قبل الماما دقيقا بهذه المنطقة ووضع الاراضي فيها، وعرف المواسم التي تمتلئ فيها الاهوار والمستنقعات بالمياه، والاوقات التي تجف فيها هذه المستنقعات وتتناقص المياه فيها. وحين كان الانكليز في حيرة من امرهم، ولا يعرفون السبيل الذي يسلكونه للوصول الى الكوت، اقترب ذلك الراعي في احد الايام من المنطقة التي كان الجيش الانكليزي يعسكر فيها، وراح يبحث عن الخيمة التي يقيم فيها قائد تلك القوة المعسكرة واذ اقترب من تلك الخيمة نهره الحارس الهندي ووجه اليه بندقيته مشيرا له بان يتوقف في مكانه ولا يحاول الاقتراب اكثر من الخيمة، والا فلسوف يكون نصيبه اطلاقة قاتلة.

كان ذلك الجاسوس يتقن الهندية اتقانا تاما، فما لبث ان اخذ يحدث الحارس الهندي بها، ويطلب اليه ان يسمح له بمقابلة القائد لامر هام تردد الحارس في الموافقة على ما اراده هذه البدوي لانه خشي ان يكون من عملاء الاتراك، وقد جاء يقصد اغتيال القائد. واذ كان الراعي يحاور الحارس فيما يريده، صادف ان خرج القائد من الخيمة، فاسرع الراعي يحدثه بالانكليزية ويعرفه بنفسه وانه قد قصده في خيمته ليفضي اليه بمعلومات مهمة.

سحب القائد الراعي من يده وادخله الى الخيمة وطلب الى الحارس ان لايسمح لاي انسان بالدخول عليهما مهما كانت صفة ذلك الانسان حتى وان كان من كبار ضباط الجيش. جلس الراعي الى القائد واخذ يسأله عن الاسباب التى ادت الى توقف الجيش عن مواصلة الزحف، فاوضح له القائد ان السبب يعود في الدرجة الاولى الى المياه التي تغمر هذه البقاع والاهوار الواسعة التي تحيط بها. واذ ذاك قال له الراعي، لقد خبرت هذه المواقع منذ زمن، وانني اعرف الاوقات التي يتوقف فيها الفيضان، ومتى ستجف هذه المستنقعات ويصبح السير خلالها يسيرا، فعليكم ان تمكثوا هنا مدة ثلاثة اسابيع ولا تغامروا بالحركة لان طبيعة الارض، بعد انتهاء هذه الاسابيع الثلاثة سوف تتغير، وستجف ويغدو من اليسير مرور الآليات فوقها. وعلى الفور استدعى القائد ضابط استخباراته اليه وانبأه بما افضى به اليه ذلك الراعي، فصدق ضابط الاستخبارات ذلك، واعلم القائد بانه يعرف جيدا ان لدي بريطانيا جواسيس معتمدين لها في هذه المناطق، لكنه لا يعرف اسماء اولئك الجواسيس واشكالهم على وجه الدقة.

وطبقاً لنصيحة الراعي توقف الجيش الانكليزي شمالي العمارة، الى ان انتهى موسم الفيضان وجفت كثير من المستنقعات ومن بينها ضفاف هور الشويجه، ووضع القادة خطة محكمة بالالتفاف على الجيش التركي من اطراف هور الشويجة الذي جعله الاتراك سندا دفاعيا لهم، ونجحت حركة الالتفاف بسرعة نحو العزيزية وسلمان باك، واوشكوا ان يصلوا الى ابواب بغداد، لكنهم تراجعوا الى الكوت مرة اخرى، وتخندقوا فيها، ففرض الاتراك عليهم الحصار الذي امتد اكثر من خمسة شهور وانتهى باستسلام القوة الانكليزية المحاصرة الى الاتراك ونقلها الى اقاصي بلاد تركيا لتجابه الجوع والبرد والمرض والموت. ولقد اشيع فيما بعد بأن ذلك الراعي لم يكن سوى لجمن نفسه!.



راعي الابل

الفصل السادس

تاجر السوس

الذي قاد الجيش الانكليزي في العراق

تاجر السوس الذي قاد الجيش الانكليزي في العراق

عرف بين اهل المدن التي كانت ينتقل فيها بلباسه العربي الفخم وبطلاقة لسانه، بانه تاجر يهتم بشراء الخيول العربية الاصيلة التي يبعث بها الى الهند بين حين وآخر. كما اشتهر بالاضافة الى ذلك بعمل آخر وجده اهل العراق غريباً عنهم، هو جمع اعواد السوس التي تستحلب منها مادة السوس التي ما تزال حتى الان تستعمل لانتاج الكثير من انواع الادوية والمرطبات.

كان هذا التاجر يدعى شيخ «صالح» وقد استقر قبل الحرب العالمية الاول بسنوات، في مدينة «تكريت» حيث استأجر له احد البيوت الكبيرة الواقعة على النشز العالي الذي يطل على نهر دجلة من ضفته اليمنى، وافرز من ساحة هذا البيت اصطبلا واسعا لخيوله التي كان يتباهى بها، كما افرز فيها غرفة واسعة جعلها «ديواناً» يفد اليه الضيوف والزوار صباح مساء لتناول «القهوة» وحتى الطعام في بعض الاحيان. وفي الوقت ذاته كان يبعث بالعمال الى الشواطئ القريبة من تكريت لجمع اعواد السوس منها والاتيان بها اليه، والحصول على مكافآت نقدية لقاء ذلك. وكلما تجمع قسم كبير من هذه الاعواد تم رزمها، وارسالها بالاطواف او القوارب الى بغداد، لتأخذ طريقها من هناك الى البصرة حيث تنقلها السفن الى بريطانيا.

كان يتلذذ اثناء جلوسه في «ديوانه» بالقصص التي يرويها زواره وضيوفه، وعلى الاخص ما يتعلق من هذه القصص بالمغامرات، بما فيها مغامرات البدو في الصحارى والقفار. وكان هو من جانبه لا يفتأ يقص على ضيوفه وزواره انباء مغامراته في الهند وفي بلاد اخرى لم تطرق اسماؤها اسماعهم من قبل، وهكذا يمتلأ المجلس بالزوار ويطول السمر الى ان ينقضي الهزيع الاول من الليل.

وعن طريق شراء السوس والخيل، اصبح للشيخ صالح زبائن كثيرون، واستطاع ان يستخدم لديه عدداً من الكتبة ومن الذين يعنون بتربيه الخيول العناية التامة وتعدت شهرته مدينة تكريت الى المناطق الغربية والبعيدة منها، فأخذ الذين يمتلكون المهار الجيدة ويريدون الحصول على اموال من وراء بيعها، يغدون اليه من منطقة «الحويجة» المحيطة بكركوك، والتى تسكنها عدة عشائر كبيرة، ومن عشائر شمر الجربا التي استقرت في منطقة الشرقاط وامتدت مضاربها ومراعي ابلها وخيلها الى مدينة «سنجار».

وقعت الحرب العالمية الاولى، وبادر الاتراك بتجنيد الشباب القادرين على حمل السلاح، واخذ عدد زوار الشيخ صالح يقل يوماً بعد يوم، وكان يسأل عن كل متغيب منهم، فيجاب بانه قد جند وتم ارساله الى الجبهة، وكان يتغابى، ويتظاهر بالجهل امام زواره، ويسأل عن هذه الحرب، وعن المتحاربين فيها، والى اي مكان قد وصلت هذه الحرب.

وكان الشيخ صالح خلال اقامته الطويلة في تكريت لا يفتأ يقوم بزيارات تمتد عدة ايام الى مواطن العشائر التي تسكن مناطق «الحويجة» ومناطق نهر العظيم، والتوجه الى الاراضي التي تقع في الغرب بين دجلة والفرات حتى يصل الى اطلال مدينة «الحضر» وهو يتخفى في ذلك في زي تاجر يهوى شراء الخيول الشهيرة.

توالت انكسارات الاتراك وهزائمهم امام الجيوش الانكليزية المجهزة تجهيزا جيدا بالعدد والالات والذخيرة والتموين. وانقضت السنتان الاولى من الحرب، والشيخ صالح قابع في داره يواصل عمله في شراء اعواد السوس،

وشراء الخيل دون ان يبدو عليه ادنى تغير في وضعه وعمله الاعتيادي المألوف.

احكم الانكليز خطتهم العسكرية بعد استسلامهم في الكوت، فعاودوا الهجوم على الكوت مجددا وانتزعوها من ايدي الاتراك، ثم واصلوا الزحف قدما نحو بغداد فاحتلوا العزيزية وسلمان باك واخيرا سقطت بغداد في ايديهم في الحادي عشر من اذار سنة ١٩١٧. ووصلت ابناء سقوط بغداد الى تكريت واذ ذاك توقع القوم هناك بان الانكليز واصلون الى تكريت حتماً، ذلك لانه لا توجد عوائق طبيعية تعوق تقدمهم من بغداد الى تلك الانحاء.

وفي احد الايام افتقدوا الشيخ صالح، واذ سألوا صانع القهوة في «ديوانه» عنه، اجاب هذا بان الشيخ قد ذهب الى البصرة في عمل مستعجل وضروري له. وطالت غيبة الشيخ صالح عن تكريت اياما واسابيع وامتدت الى شهور دون ان يصل اي نبأ عنه. ووصل الانكليز الى تكريت واحتلوها وساروا شمالا، وقبل ان تعلن الهدنة بايام، وصل الى تكريت ضابط كبير برتبة فريق، سارع حين وصوله الى مقر الضابط السياسي الانكليزي في تكريت، واذ اتخذ مجلسه هناك امر الضباط السياسي بان يستدعي له على الفور فلانا وفلانا من الرجال وجيئ بالمستدعين على عجل. وحين دخلوا عليه قام من مكانه مرحبا بهم، وهو يصافح كل واحد منهم وينطق باسمه ويسأله عن حاله. ودهش هؤلاء لانه لم يسبق لهم ان تعرفوا الى ضابط بهذه الرتبة الرفيعة مثل هذا الضابط وهنا قال لهم «آه نسيتم الشيخ صالح ابو السوس؟ انا الشيخ صالح!» ولم يكن ذلك الشيخ في الواقع سوى الفريق «مارشال» الذي تولى قيادة الجيش البريطاني بعد سقوط بغداد، والذي استطاع بجولاته التي كان يقوم بها قبل الحرب ان يلم بالطرق والموانع التي تقع فيها مما استفاد منه الجيش الانكليزي فائدة جلي في زحفه من بغداد الى الشرقاط ومنها الى الموصل بعد اعلان الهدنة.



الجنرال مارشال

الفصل السابع

الممرضة الرحيمة

الممرضة الرحيمة!!

كلنا ننشد، ايام المرض، الممرضة الصالحة، المهذبة المخلصة لواجبها، والتي ينطبق عليها النعت المشهور «ملاك الرحمة» قولا وعملا. ذلك لان من اهم ما يعين المريض على احتمال العلاج، ويخفف من الام مرضه، هومايلقاه فعلا من لطف الممرضة التي تسهر على راحته وعلاجه، وتؤنسه برقة شمائلها ودماثة خلقها، وتزيل عنه كابوس الخوف من المصير السيئ الذي ينتظره، بحسن رعايتها له، والاسراع الى نجدته عندما تنتابه نائبة ما.

هذا ما وجده الكثيرون من المرضى والمصابين من رعاية ملائكة الرحمة لهم، وما يودون ان تتحلى به هذه الملائكة في كل بلد وفي كل زمان. ولكن هل يخطر على بال احد ان واحدة من ملائكة الرحمة هؤلاء، تتحول بفعل مهنتها في التمريض، قاتلة للبشر عن عمد؟ وهل يصدق احد حقا ان يحدث مثل هذا؟ لقد حدث ذلك مرات عديدة، وازهقت ارواح نفوس بريئة بفعل «قسم» من اولئك الممرضات.

كانت فرنسية المولد والمنشأ ولكنها ارمنية اصلا، وتحمل الجنسية العثمانية، عن لها ان تكون احدى ملائك الرحمة، وان تعرض خدمتها على جمعية الهلال الاحمر العثمانية لتصبح واحدة من الممرضات اللواتي يعملن في المستشفيات التركية. وقُبل عرضها، فانتسبت الى جمعية الهلال الاحمر

العثمانية، والتحقت باحد المستشفيات التابعة للجمعية في منطقة اسطنبول اثناء الحرب العالمية الاولى.

كانت «هيلين» وذاك هو اسمها الذي عرفت به، بارعة الجمال، رائعة الحسن، حلوة القسمات، تتمتع بقوام لدن رهيف ورشاقة تحسدها عليها ملكات الجمال في العالم، وجاذبية تأخذ بمجامع القلوب، وينحني امامها اشد الرجال قساوة ورباطة جأش.

وكما اشتهرت «هيلين» بجمالها الفتان هذا، فانها اشتهرت بحسن رعايتها للمرضى، واهتمامها بشؤونهم، وحدبها على معالجتهم وتطبيبهم. ولكن قلب هذه الفتاة الارمنية المتفرنسة لم يكن لينطوي على الرحمة كما هو ظاهر من ملامح الرحمة التي تحملها بين اضلاعها، وبما تنفرد به من جمال، وحسن الحديث والسيرة لقد كان يكمن في فؤادها ذاك بدلا من الملاك الطاهر الرحيم، شيطان عابث عات يتلذذ بانهاء حياة الاخرين، وعلى الاخص المرضى من الاتراك.

لقد كانت الوسائل التي استعملتها هذه الممرضة في معالجة المرضى شاذة وخطيرة. لقد كانت تحقن هؤلاء المرضى بزرقات مسمومة تؤدي الى ان يفارقوا الحياة بعد فترة قصيرة، او ان يصابوا بالعمى التام ان هم نجوا من الموت المحقق. ونظرا لازدحام المستشفيات بالمرضى والمصابين وكثرتهم في تلك الايام، فلم يكن أحد من المشرفين على تلك المستشفيات يظن ان وراء وفيات عدد كبير من المرضى او اصابتهم بالعمى، سرا خطيرا، وعملا شريرا كانت تمارسه تلك الممرضة الرهيبة. كما ان عدم تسرب الشكوك الى كثرة من يموتون اثناء العلاج من المرض، لم يحمل المشرفين على المستشفى، على البحث في الاسباب التي كانت تؤدي الى تلك الحالات من الوفاة والعمى، والمبادرة بتشريح جثة احد الموتى للتحقيق من الاسباب التي ادت الى وفاته.

غير انه ازدياد عدد الموتى من المرضى، الذين كانت هيلين تسهر على علاجهم، قد دفع مدير المستشفى الى محاولة البحث والاستقصاء. فقد خيل اليه ان تلك الوفيات لم تكن طبيعية، وانما قد تعود الى فعل من افعال القتل المتعمد، ولذلك فرض مدير المستشفى رقابة شديدة على هيلين وعلى المرضى

الذين تعني بتمريضهم. وعندما توفى احد اولئك المرضى، استدعى المدير كل الاطباء في المستشفى، وطلب اليهم ان يشرحوا جثة المريض، وان يشتركوا جميعا في بحث سبب الوفاة.

نهد الاطباء بما ازاده المدير منهم فعقدوا مجلس استشارة واقبلوا بانفسهم ومن دون معونة من ممرض او خادم، على تشريح جثة اخر مريض من مرضى «هيلين». وكم كانت دهشتهم عظيمة حين وجدوا في معدة المتوفى كمية من «السم» كانت قد زرقت بفعل «الابر» وليس مع الاطعمة والاشربة التي اعطيت الى المريض قبل وفاته.

صدرت الاوامر باعتقال «هيلين» والتشدد في التحقيق معها واستطاعت لجنة التحقيق ان تنتزع من هذه المرضة، الاعتراف الكامل بجرائمها. لقد ظهر ان تلك الممرضة كانت واحدة من الجاسوسات اللواتي جندهن الفرنسيون للعمل في صفوف الجيش العثماني، وكان عملها مزدوجا، فهي في الوقت الذي كانت تمد فيه الفرنسيين وحلفائهم الانكليز بكل ما كان يقع في حوزتها من معلومات عن اوضاع السلطنة العثمانية وجيوشها وخططها العسكرية، فانها كانت في ذات الوقت تحول دون شفاء الكثيرين من الضباط الذين كان شفاؤهم موكدا، كيلا يعود هؤلاء بعد الشفاء الى الميدان، والمساهمة في الحرب من جديد.

ولقد ذكر احد الضباط العراقيين الكبار الذي اشترك في الحرب العالمية الاولى الى جانب الجيش العثماني، انه مرض وادخل تحت رعايتها، فاذا بها تكرر نفس ما كررته مع ضباط اخرين من قبل. ويقول ذلك الضابط «كنت احد الذين ادخلوا هذا المستشفى في احد الايام، واحد الذين عولجوا على يد هذه الممرضة الاثيمة، وقد حاولت ان تقضي على حياتي، لو لم يكن لي نصيب في الحياة. ففي ذات ليلة زرقتني بابرة وكدت اموت لولا وصول الطبيب ومعالجته اياي. وكانت الصدف وحدها هي التي ابقت على حياتي، ولم نكن نعرف بان هذه الممرضة الرحيمة، ومندوبة الجمعية الانسانية، قامت بعملها بقصد الازهاق الارواح، الى ان انكشفت اخبارها مؤخرا.



الفصل الثامن

الجاسوسة

التي دمرت مخازن العتاد العثماني في الاستانة

الجاسوسة التي دمرت مخازن العتاد العثماني في الاستانة

اكثرت الدول المتحاربة، وبصفة خاصة اثناء الحرب العالمية الاولى، من تغليب العنصر النسائي على ما سواه للنهوض باعمال الجاسوسية، وتسقط الاخبار وما سواها من الامور التي تترك لها اثارها في تقرير مصير الحرب. فقد اخذ الاختيار يقع على العنصر النسائي بصفة اكثر من العنصر الرجالي وذلك بعدما ثبت بان النساء كن اكثر استعداداً للقيام باعمال التجسس، وانهن يستطعن ان ينهض بادوار قد يعجز خيرة الرجال عن النهوض بها.

وفي السنتين الاوليين من الحرب العالمية الاولى، جابه الحلفاء، وعلى الاخص الانكليز منهم، ليس مقاومة عنيدة من جانب الاتراك في مضايق الدردنيل، بل هزائم منكرة في معارك مازالت تتردد ذكرياتها بالفخر والتمجيد للجيوش التركية من امثال معركة«جناقلعة» وما شاكلها. فلقد فشل البريطانيون في الهجمات العديدة التي شنوها على مضايق الدردنيل، وحاقت بهم الهزائم المنكرة هناك، وغدوا في وضع حرج ودقيق للغاية اضطروا ازاءه الى الانسحاب وتوقف الهجوم.

لقد كان الانكليز يريدون بعد انسحابهم من الدردنيل ان يعرفوا مقدار القوة التي ما يزال الاتراك يحتفظون بها في تلك الساحة من ساحات الحرب هناك كيما يتخذوا التدابير المضادة لها والاحتراز من استخدامها، وهنا لجأ الانكليز الى تسخير كل ما لديهم من الجواسيس والمخبرين عن تلك القوة في الدرجة الاولى.

بث عيون كثيرة لهذا الغرض، ونشطت العشرات من النساء المجندات في قلم الجاسوسية البريطانية للنهوض بهذا الدور الخطير، فاذا بواحدة ذكية منهن يكتب لها النجاح في هذا الميدان. كانت هذه الجاسوسة من البريطانيات القديرات اللواتي عشن في العاصمة العثمانية زمنا طويلاً، واكتسبن الجنسية العثمانية منذ وقت غير قصير، فكسبن بذلك ثقة الاتراك فيهن، وعدم تطرق الريب والشكوك الى تصرفاتهن وتحركاتهن. كانت هذه البريطانية تحتل مركزا رفيعا في المجتمع الاسطنبولي بما عرفت به من الاصالة وكرم المحتد ودماثة الخلق، الى جانب الجمال الوسيم، والمواهب الادبية والفكرية، حتى اصبحت نجمة لامعة في المجتمع العثماني الرفيع.

كانت تنهد في كل مناسبة الى اعمال الخير والمؤاساة والمساعدة وتبذل الجهود الثمينة في تضميد الجراح ايام النكبات، وذلك بما كانت تتقدم به من البذل والعطاء. وعندما ارتد الانكليز منكسرين عن الدردنيل، استغلت هذه الجاسوسة البريطانية، تلك الفرصة فاستطاعت ان تتصل بالقائد العثماني العام، وان تقدم له هدية تتألف من خمسة وعشرين الف علبة من علب السكاير الانكليزية الشهيرة، لكي يوزعها ذلك القائد على ضباطه وجنوده المنتصرين. وحين الاتصال بالقائد وتقديم تلك الهدية اليه، وتهنئته بالنصر العظيم، استطاعت ان تحصل اثناء الحديث معه عن كثير من الخطط التي كان يعدها للمعارك المقبلة في تلك الجبهة، وان تبعث بتفاصيل ما سمعت عنه الى مقر القيادة البريطانية في لندن.

طلب البريطانيون الى هذه الجاسوسة ان تبذل كل ما لديها من جهد، وتكرس كل نشاطها لاكتشاف مخازن الامدادات والتجهيزات العسكرية التي يراد نقلها من جبهات الدردنيل الى جبهات اخرى من الحرب، في العراق، أو

فلسطين او غيرهما.

كان الاتراك، بعد انتصارهم الكبير في الدردنيل قد اعدوا العدة لارسال جيش كبير الى فلسطين لملاقاة الانكليز الذين اجتازوا صحراء سيناء واقتربوا من الحدود الفلسطينية بقصد التوغل في فلسطين والاندفاع نحوسوريا ولبنان وربما الزحف من هناك الى العراق. وكانت القوة التي يراد ارسالها الى فلسطين قد تجمعت في ثكناتها ومعسكراتها، في الوقت الذي بوشر فيه بتجميع العتاد والذخيرة في محطة قطار اسطنبول انتظارا لشحنها بالقطار العائد الى فلسطين من اسطنبول.

راحت هذه الجاسوسة ومن معها من الجواسيس الاغراب، الذين استطاعت ان تجندهم بما اغدقته عليهم من اموال بسخاء، تتحين الفرصة لكي تضرب ضربتها القاضية في المحطة. لقد زودت بقنبلة اخفتها في حقيبة اليد التي كانت تحملها معها ليل نهار، وراحت تحوم حول المحطة وتدرس الطرق التي توصلها الى حيث المخازن التي تجمعت فيها الذخيرة التي يراد نقلها الى فلسطين بالقطار. واذ المت بتلك الطرق ومداخلها وخارجها انتظرت اللحظة التي يشتد الازدحام فيها هناك كيما تستطيع ان تمرق عبر ذلك الازدحام من دون ان تثير اي شك او تساءل. حتى اذا ما حانت تلك اللحظة اخرجت القنبلة من محفظتها بكل خفة والقت بها في المخزن الرئيس الذي تجمعت الذخيرة فيه. وما هي الا ثوان حتى دوى صوت انفجار شديد يمزق الآذان، وتصاعدت السنة اللهب والدخان في كل ركن من اركان مخازن العتاد.. وكان من شدة الانفلاق، ان الانفجار لم يدمر مخازن السلاح وحدها حسب، وانما دمر محطة السكك والميناء برمته تدميرا تاما، وهدم البيوت القائمة في المحطة والميناء او جوارهما، واتلف خط سكة الحديد، واوقفت وسائط النقل لمدة غير قصيرة. وبفعل هذا العمل التخريبي الذي قامت به تلك الجاسوسة، تأخر وصول القوات التركية الى فلسطين، ونقص ما لديها من سلاح مما كان له تأثيره الفعال في ضعف المقاومة التركية امام الانكليز في فلسطين وفي سوريا، وفي تقريب النهاية المحتومة لتركيا وانهيارها التام في اعقاب تلك الحرب.


HAMLYN
H

الفصل التاسع

التجسس على الجنرال الايطالي بالبو في ليبيا ...

التجسس على الجنرال الايطالي باليو في ليبيا

كان ما نشر عن غرائب اعمال الجاسوسية في البلاد العربية اثناء الحرب العالمية الثانية، يفوق اضعاف مماكشف عنه خلال الحرب العالمية الاولى. وكما ان كثيرا من البلاد العربية كانت من مسارح الحرب العالمية الاولى، فان البعض منها وعلى الاخص الشمال الافريقي، كان من المسارح الرئيسة للحرب العالمية الثانية.

وكما كان الامر في الحرب العالمية الاولى، فان المتقاتلين في الحرب العالمية الثانية كانوا ايضا من الانكليز والالمان والايطاليين. وعلى خلاف ما وقع في الحرب العالمية الاولى كان الايطاليون منذ بداية الحرب، وبفعل تحالف الدوتشى الابله موسوليني مع هتلر، في التهام المستعمرات الفرنسية والانكليزية واقتسامها فيما بينهما، فقد كان الايطاليون يمنون انفسهم ليس بالاحتفاظ بطرابلس الغرب وبرقة، اي ليبيا التي احتلوها قبل وقوع الحرب العالمية الاولى بسنتين، حسب، وانما بالاستيلاء ايضا على تونس والمغرب والجزائر وربما مصر وبذلك تمتد الامبراطورية الايطالية في افريقيا اميالا عديدة

ولما كانت مصر مهددة بالاحتلال الالماني والايطالي، فقد كان من مهمة المباحث المصرية التي كان الانكليز يشرفون على اعمالها حتى قبل قيام الحرب، ان تسارع في العمل للتعرف على خطط القوات الايطالية المرابطة في ليبيا والوجهة التي تريد ان تتحرك نحوها.

في اوائل شهر ايلول ١٩٣٩، وبعد انفجار الحرب العالمية الثانية مباشرة، وصلت الى دا ئرة المباحث المصرية، معلومات سرية موثوق بها تفيد بان الجيش الايطالي في طرابلس الغرب وفي برقة يجري استعدادات كبيرة هناك، ويقوم ببناء المخازن الواسعة تحت الارض لحفظ الاعتدة والمؤن وحتى المياه، وان هذه المخازن تتركز في مدن «البردية» و «طبرق» وغيرهما من المدن التي تتاخم الحدود الليبية ـ المصرية.

كان لا بد من انفاذ احد ضباط المخابرات العربية الى ليبيا لاستطلاع الوضع فيها والتأكد من حقيقة الاستعدادت التي يقوم الايطاليون بها هناك. لم تكن مثل هذه المهمة من المهام اليسيرة وينبغي ان تتوفر، فيمن ينهد له القيام بها، صفات مميزة تؤهله لمثل ذلك، كالخبرة الوافية بالصحراء، ومعرفة مسالكها الخفية، وتحمل اعباء الجوع والعطش والسير المضني على الاقدام، وتمكنه من كيفية الاتصال باعراب الصحراء وحتى التعامل معهم للافادة من مساعداتهم وخدماتم عند الحاجة.

اختير احد الضباط المصريين اللائقين لهذه المهمة، كما تم اختيار صديق ليبي يدعى «صالحين» من طرابلس ويدير محطة لاسلكي سرية للعمل معه حيث تم الاتفاق على ان يلتقي ذلك الضابط العربي بصالحين هذا في نقطة معينة في الصحراء الغربية، وفي وقت محدد.

تحرك الضابط المصري مع زملاء له في مساء اليوم الحادي والعشرين من شهر ايلول سنة ١٩٣٩ باتجاه الصحراء الغربية، ثم توقفوا في نقطة تقع بين «سيدي عمر» «ومدلينا» على الحدود بين مصر وبرقة حيث تقوم الاسلاك الشائكة التي تفصل بين إلقطرين المصري والليبي. عمد زملاء الضابط المصري الى لفه في خمس «بطانيات» من الصوف واوثقوه من الخارج بحزام سميك من الصوف الاحمر الذي يستعمله الاعراب لفرش اراضي خيامهم،

ثم قذفوا بتلك الرزمة الثقيلة بحملها، من فوق الاسلاك الشائكة، فتدحرجت من دون ان يصاب الضابط باي اذى عند سقوطه على الارض وهكذا استطاع هذا الضابط ان يدخل حدود «برقة» وان يتواعد مع زملائه على الالتقاء بهم في نفس المكان بعد مرور اسبوعين. سار هذا الضابط الجرئ وسط ظلام الليل الدامس يطرق ارض الصحراء ولا يحمل معه سوى مسدسه وزاده من الطعام والماء لمدة يومين ليس الا.

وحين انقضى الاسبوعان ذهب زملاؤه الى نفس المكان الذي غادروه فيه، وانتظروا عودته لكنه لم يعد، ومر على ذلك يوم ولحقه ثان وثالث، وانقضى اسبوع واسبوع ثان، تم اعقب ذلك الشهر الاول والشهر الثاني دون ان يظهر له من اثر. واذ انقضت على غيابه مدة ثلاثة اشهر كاملة، اعتبره زملاؤه من المفقودين ويئسوا من عودته اليهم سالما.

ومع كل ذلك فان ادارة المباحث المصرية لم تنقطع عن ارسال دوريات كل يوم تطوف المنطقة القائمة بين «سيدي عمر» و «مدلينا» املا في عودة «لمعي» وهو اسم ذلك الضابط، بعد ذلك الغياب الطويل. وصدقت نبوءة المباحث وعاد لمعي فجأة في مساء يوم من الايام مع رفيقه الليبي عند النقطة المحددة حيث صادف وجود احدى الدوريات المصرية هناك، والتي اشار اليها بان تنتظره، وقام رفيقه الليبي بلفه بذات البطانيات والحزام، وقذفه من فوق الاسلاك الشائكة وانصرف.

كان لدى ذلك الليبي كلب ذكي يدعوه عنتر. وكان هذا الليبي قد اعطى «لمعي» محفظة نقوده التي كان يحتفظ بها، ولكن «لمعي كان قد ضل الطريق بعد اجتيازه الاسلاك الشائكة، ولم يهتد الى النقطة التي اتفق على الالتقاء فيها مع صديقه الطرابلسي، وفطن الطرابلسي الى الامر، فطفق يبحث عن «لمعي» مطلقا كلبه «عنتر» الذي كان يشم الارض امامه الى ان التقى بلمعي الذي كان يدور في ذات المنطقة. ولذلك سارا معا الى «البردية» حيث كانت اعمال البناء والانشاء قائمة على قدم وساق، ولذلك لم يصعب عليهما، وهما بزي اعراب الصحراء، من الانخراط مع العمال العاملين في تلك الانشاءات.

وحين كان الاثنان يعملان النهار كله تحت سياط الجنود الايطاليين، يعودان عند المساء متعبين الى خيمتهما. وفي ضوء المصباح الخافت كان «لمعي» يرسم على الورق مواقع المخازن والتحصينات التي الم بها اثناء عمله نهاراً، في حين كان «صالحين» يجلس بباب الخيمة يحرسها ويراقب الطريق حذرا من قدوم مفاجئ يفاجئهما في عملهما هذا.

وفعلا جاء مثل هذا المفاجئ، لكنه لم يكن بشرا، وانما هو الكلب «عنتر» الذي دخل الخيمة ونبش الحفرة القائمة تحت فراش لمعي والتي كان يخفي فيها الرسوم والمعلومات الملتقطة في مظروف كبير، ويحمل ذلك المظروف باسنانه وينطلق خارج الخيمة، ويروح يعبث بالمظروف حتى مزقه وبعثر الاوراق التي كانت فيه. وشاء سوء طالع احد الاعراب الذي كان يمر في المكان الذي سقطت فيه الاوراق، فاخذ يجمعها حين فاجأه احد الضباط الايطاليين فالقى القبض عليه، وحوكم ولم يجده دفاعه بانه كان عابر سبيل ولا علم له بتلك الاوراق، وحكمت عليه المحكمة بالسجن المؤبد، وارسل الى ايطاليايقضي مدة السجن فيها.

وحدس «لمعي» و «صالحين» ما حدث، وعلى الرغم من الرقابة الشديدة التي فرضتها السلطات الايطالية على العمال، بعد ذلك الحادث، فان «لمعي» استطاع ان يرسم رسوما جديدة بدل الرسوم الاولى التي وقعت بفعل الكلب «عنتر» في ايدي الايطاليين. لكن لمعي فوجئ بعد ذلك بامر اصدره الجنرال الايطالي «بالبو» وهو يقضي بان كل العاملين في بناء المخازن، لا يمكن ان يسمح لاي منهم بترك العمل الا بعد ان يكمل البناء في موعد حدد له منتصف شهر ايار من سنة ١٩٤٠.

وحين ازفت ساعة انتهاء العمل في بناء المخازن سمح للعمال بالعودة الى اهليهم، وكان من بينهم الضابط «لمعي» الذي عاد الى مصر وهو يحمل النذير معه بان ايطاليا سوف تدخل الحرب الى جانب المانيا. وعلى هدى المعلومات التي جمعها «لمعي» والرسوم التي رسمها للمخازن في «البردية» اغارت الطائرات البريطانية على تلك المخازن ودمرتها تدميرا تاما. وهكذا نجحت عملية «لمعي» التجسسية تلك، وقدمت مساعدة جلي للانكليز في ضرب الجيوش الايطالية

والالمانية التي تمركزت في ليبيا وكادت تطبق على مصر ذاتها، مما يستطيع القارئ ان يطلع عليه بالتفصيل من كتابنا الذي صدر حديثا بعنوان. «حياة الفيلد مارشال رومل ومذكراته السرية».



الفَصل العَاشِر

المتسول الداهية

المتسول الداهية.

عرفه سكان حي «العباسية» في القاهرة، صغارهم وكبارهم منذ زمن بعيد. كان يرابط ليل نهار امام باب معمل المياه «الغازية» في ذاك الحي، يتسول بملابسه القذرة، وهيئته المزرية التي كان ينفر منها صاحب المعمل السيد «كاليرجوس» اليوناني.

وكم من مرة طرده صاحب المعمل بنفسه، وطلب الى عماله ان يطردوه، لكنه ما يلبث ان يعود ليقف في مكانه المعهود بباب المعمل. واذ نفد صبره اتصل صاحب المعمل بسلطات الشرطة، وطلب اليها ان تتدخل في الامر، وتطرد ذلك المتسول القذر من منطقة تعج بمعسكرات الجيش المصري والبريطاني معا. واستجابت الشرطة فبعثت باحد رجالها يقتاد ذلك المتسول ويأتي به الى مركز الشرطة.

ومع ذلك فعندما قدم «كاليرجوس» في صباح اليوم التالي الى معمله وجد ذلك المتسول نفسه يقف بذات الهيئة، والوضعية امام باب المعمل كالعادة، ولذلك فلم يتعرض له كاليرجوس بشيء وتركه وشأنه فلعل ان يغادر المكان من تلقاء نفسه.وجاء يوم لم يعد ذلك المتسول يشاهد عند باب المعمل، فلقد غادر مكانه بعد خروج العمال والعاملات في مساء احد الايام، لكنه لم يعد في صباح اليوم التالي.

في ذلك المساء الذي انصرف فيه المتسول بعد خروج العمال والعاملات من المعمل، راح يسير في الشوارع المتفرعة والازقة الضيقة، ليصل الى سيارة كبيرة يصعد فيها، ثم يهبط منها امام دائرة المباحث الجنائية المصرية. وعلى غير عادته في الملبس والمظهر تحول ذلك المتسول الوسخ، الى شاب بهي الطلعة، حسن الثياب، عرفنا فيه «الملازم احمد» احد الضباط النابهين في قلم المباحث الجنائية، الذي يصعد في خطى سريعة الى مكتب المباحث. وقبل ان ينتهي احمد من تقديم تقريره الشفوي عن المهمة التي اوكلت اليه، تدخل المكتب فتاة صغيرة السن، متوسطة الجمال، بسيطة الملبس لتقدم تقريرها هى الاخرى.

وفي اليوم التالي نرى الملازم احمد، وتلك الفتاة ذاتها، في ادارة معمل المياه الغازية، حيث تتقدم الفتاة بخطى رزنة الى كاليرجوس لتقول له: -

- مسيو كاليرجوس! اقدم لك خطيبي «ماريوس»

- خطيبك؟ ولكن متى تم ذلك ياجوزفين؟

وردت الفتاة التي كانت تعمل سكرتيرة لدى صاحب العمل بنوع من الخجل والزهو تقول «لقد تم منذ عشرة ايام حيث عقدنا الخطوبة».

- ولماذا كتمت هذا الامر عني طيلة تلك المدة

- سببه ان في الامر سرا

- اي سر تعنين افصحي؟

- ان ماريوس من الاسرى الايطاليين المعتقلين في معسكر الاعتقال في الاسماعيلية، وقد استطاع ان يهرب من المعتقل ويلجأ الي، فآويته في بيتي وتعارفنا وتعاهدنا ثم عقدنا الخطوبة».

- اكنت تعرفينه من قبل؟

- اجل! انه من مواليد مصر، وكان هو واسرته يعيشون معنا في بيت واحد، لكنهم غادروا الى ايطاليا قبل وقوع الحرب وقرروا الاقامة فيها بصفة دائمة.

- لك تهاني الحارة!. ولكن الا تخافين عليه ان يقع في قبضة الشرطة التي لا تنفك تفتش عن الهاربين من معسكرات الاعتقال.

- طبعا! ولهذا جئت به اليوم اليك لكي تلحقه بعمل ما في المعمل ليكون

في امان .

ـ كيف؟ اتريدين مني ان آوي عندي اسيرا هاربا؟؟

ـ ارجوك يامسيو. ان ماريوس يحسن اللغة العربية، ولسوف يختلط بعمال المعمل فلا يستطيع احد ان يفرقه عنهم .

ـ ارجوك انني لا استطيع ذلك

ـ اتوسل اليك ان تفعل ذلك فليس هو بالامر الشاق، ولا خوف منه .

وتابعت السكرتيرة توسلاتها ورجاءها حتى ظفرت بموافقته على تشغيل ماريوس عنده، ذلك لان جوزفين ابدت خلال عملها من الحذق والامانة ما اكسبها ثقة كاليرجوس، فضلا عن ان احد ضباط الانكليز الذي تربطه بـه صداقة متينة، هو الذي قدم جوزفين الى كليرجوس لكي تعمل عنده

× × ×

حدث في احد الايام ان كان كاليرجوس يتجول في المعمل بين العمال، عندما شهر احد العمال مسدسه ووجهه الى كاليرجوس يريد الفتك به ،فاذا بيد قوية تمسك بيد ذلك العامل وترفعها الى اعلى فتنطلق الرصاصة في الهـواء، وينجو كاليرجوس من موت محقق، وكانت تلك اليد القوية التي ضغطت على العامل الذي اشهر سلاحه بـوجه كـاليرجـوس هي يد «مـاريوس» خـطيب جوزفين .

اعلمت الشرطة بالحادث فقبض على العامل المعتدي الذي تبين فيما بعد بان الامر الذي حرض العامل على محاولة الاغتيال هو ان كاليرجوس قد خصم من مرتب ذلك العامل نصفه لان العامل حطم احد الاجهزة سهوا .

بعد الحادث بقليل استدعى كاليرجوس، العامل ماريوس الى مكتبه، وشكره على همته التي انقذت حياته، وقدم اليه مظروفا يحتوي على مائة جنيه، واعلمه بانه قد ضاعف اجره، وعينه رئيسا للعمال . وفي صباح احد الايام استدعي كاليرجوس، ماريوس الى مكتبه واجلسه امامه، وقال له : ـ لقد اديت معي ياماريوس منتهى الاخلاص، وانني اعتبر نفسي سعيدا اذ تعرفت عليك، واشكر لجوزفين تقديمك الي، وانني قد استدعيتك الان الى هنا لكي اشركك

معي في اعمال خطيرة اقوم بها في سبيل صالح مواطنيك الايطاليين، وحلفائهم الالمان، ولسوف افضي اليك بسري الذي احتفظ به فهل تعاهدني على الكتمان؟

- او ترتاب في ياسيدي بعد ان منحتني ثقتك الغالية كل هذه المدة الطويلة؟

- لا ابدا فلقد افتديتني بروحك وانقذتني من الموت ولا اظن بانك سوف تبخل علي بها مرات ومرات. اقترب مني واصغ الي جيدا».

واقترب ماريوس من صاحب المعمل كثيرا، وارهف اذنيه ليستمع الى ما يقوله، فاذا بكاليرجوس يقول: - انني آوي الاسرى الفارين من الالمان والايطاليين، ومن ثم اقوم بتوزيعهم في كل انحاء القطر ليقوموا بالتجسس لحسابي طبقا للتعليمات التي تصلني من برلين. هناك تعليمات جديدة سوف تصلني هذه الليلة، واود ان اعهد اليك بايصال هذه التعليمات الى اعواني من الاسرى الجواسيس المنتشرين في مختلف اقاليم مصر. وتلك مهمة كنت انا نفسي اقوم بها قبلا، ولكنك ياماريوس سوف تتولى انت هذه المهمة نيابة عني من الآن فصاعدا فهل فهمت؟

- اجل فهمت

- حسنا استعد للسفر من غد واكتم ذلك حتى عن جوزفين ذاتها.

- طبعا اطمئن ياسيدي.

× × ×

في الهزيع الاخير من تلك الليلة كان كاليرجوس قابعا في ارض خلاء من صحراء «البدرشين» البعيدة عن السكان، وقد امسك في يده بمصباح كهربي قوي الضوء، وراح يرسل منه اشارات خاصة الى السماء؛ ولم يلبث ان ارتفع في الجو فوقه صوت طائرة، كان خافتا يكاد لا يسمع، واذا بالطائرة تهبط في المكان الذي كان فيه كاليرجوس، وينزل الطيار ومساعده من الطائرة فيلتقيان مع كاليرجوس ويصافحانه ويحادثانه ثم يسلمانه مظروفا كبيرا، ويعودان الى الطائرة ليحلقا بها، في حين يتجه كالرجوس الى سيارة صحراوية كانت تنتظره

على بعد.

وقبل ان يدير الطيار ومساعده مراوح الطائرة للتحليق بها، شاهدا قوة كبيرة مسلحة من الضباط والجنود المصرين تحيط بالطائرة من كل صوب، وتطلب اليهما ان يسلما من دون مقاومة، وما ان سلما الاثنان نفسيهما حتى تبين بانهما من الالمان، كما ظهر بان الطائرة التي كانا يستقلانها كانت من سلاح الطيران «البريطانية» وتحمل نفس شاراته للتمويه والتضليل، وكان على رأس القوة العربية التي احاطت بالطائرة رئيس ادارة المباحث الجنائية نفسه.

× × ×

في صباح اليوم التالي استدعى كالرجوس، ماريوس اليه، وقدم اليه مظروفا كبيرا يضم عدة اوراق عليها اشارات ورموز، وطلب اليه ان يوزع هذه الاوراق على اعوانه في الاقاليم، بعد ان اعطاه قائمة باسم كل واحد منهم، ومقره. سافر ماريوس لانجاز مهمته تلك، لكنه لم يسافر وحده كما اراد له كاليرجوس ان يفعل ذلك، وانما اصطحب معه عددا من الشباب بعدد اولئك الاعوان، وان يذهب كل واحد من هؤلاء الشبان الى واحد من اعوان كالرجوس حسب الاسماء والعناوين التي يحتفظ بها ماريوس. وما هي الا ايام فاذا بماريوس والشبان الذين رافقوه يعودون الى القاهرة ومعهم الجواسيس من اسرى الالمان والالطليان. وحين دخل ماريوس مكتب المباحث الجنائية وجد امامه صاحب المعمل كالرجوس، والطيار الالمان ومساعده.

وانكشف السر آنذاك. فاتضح ان ماريوس هو الملازم احمد في ادارة المباحث، وان الشبان الذين صحبوه في سفرته تلك كانوا من ضباط المباحث، وان «جوزفين» كانت الاخرى من عمال مكتب المباحث ايضا. اما حادثة الاغتيال الذي وقع في المعمل على كالرجوس، فقد كانت حادثة مدبرة من المباحث، وذلك لكي يستطيع احمد بذلك ان يكسب ثقة رئيس المعمل، كالرجوس، ويكتشف سره، الذي اعياه الكشف عنه عندما كان احمد يقوم بدور المتسول في باب معمل «الغازوزة». ولقد تبين من التحقيق ان كالرجوس، صاحب معمل المياه الغازية لم يكن يونانيا في الاصل، بل جاسوسا

المانيا قدم الى مصر واستقر في القاهرة، قبل ان تنشب الحرب العالمية الثانية وانشأ معمل المياه الغازية بقصد التستر على عمله الحقيقي وهو التجسس لحساب الالمان.



الفصل الحادي عشر

العمة الطيبة!!

العمة الطيبة !

كانت في متوسط العمر، كان لها ابناء يعملون في البحر، وكانت تدعي بانها انكليزية المولد والنشأة. اتخذت لها داراً في جبل طارق على مقربة من «بيت الملاحين» الذي يأوى اليه الملاحون الانكليز هناك. وكان الملاحون البريطانيون قد ارتاحو الى وجودها على مقربة من بيتهم لما اشتهرت به من دماثة الخلق، وحسن الضيافة والكرم فكانوا يقصدون دارها دوما، للاستمتاع بقدح من الشاي الجيد، او العناية بغسل ثيابهم، او رتق جواربهم فلا بد لكل واحد منهم يطرق بابها ان يحظى بهذا واكثر منه.

ولذلك الف الملاحون الانكليز تلك المرأة وكانو يطلقون عليها لقب «العمة» ولم يكونوا يرتابون قط في شأنها وفي مسلكها، واكثر من هذا انهم كانوا في بعض الاحيان يستمتعون عندها بسهرات جميلة يتناولون فيها كؤوس الشراب ويأنسون الى احاديثها العذبة، وينسون انفسهم في بهجة المجلس، وغمرة الشراب، فلايعودون الى رشدهم الا بعد ان يكون قد مضى من الليل اكثره، وبدت تباشير الفجر ظاهرة.

وطال مكوث العمة في ذلك الموقع وكثر عدد زوارها من الملاحين البريطانيين، وكان كل واحد منهم يمر بجبل طارق، لا بد ان يتوقف ولو ساعات، اذا مانجا من خطر مهاجمة الغواصات الالمانية لسفينته، وان يدلف الى دار العمة ليلقى بعض الراحة فيه ولو لوقت قصير.

كان الوقت من شتاء سنة ١٩٤٠ وقد اشتدت الضربات على الحلفاء. ففي البر هزمت جيوش الفرنسيين شر هزيمة، واحتل الالمان ليس فرنسا وحدها بل واوربا الغربية برمتها، بلجيكا والسويد والنروج وهولندا. اما بريطانيا فقد هرب مابقي لها من جنود في اوربا، بعد حادثة دنكرك، وراحت تعاني اضافة الى ذلك من الغارات الالمانية المدمرة التي تسقط عليها الاف القنابل ليل نهار، واخذت الغواصات الالمانية في البحار، وعلى الاخص البحر الابيض المتوسط ومضيق جبل طارق، تتصيد السفن البريطانية التي تنقل العتاد والمؤونة من امريكا ومن اي من المستعمرات البريطانية الواسعة في آسيا وفي افريقيا، وعلى هذا الاساس بث الالمان عيونهم وارصادهم في كل شبر من بلاد اسبانيا والبرتغال وفي بلدان افريقيا الشمالية التي تحولت الى معسكرات واسعة تعج بالجيوش الايطالية والالمانية والانكليزية. حيث اشتد الصراع في سبيل تمسك الالمان بليبيا والتحرك نحو الديار المصرية.

في ذات يوم اندفع الى بيت «العمة» احد الملاحين الانكليز فبادرها على الفور، «هل غسلت ثيابي ياعمتي ؟ وردت عليه العمة» دهشة وهي تقول «لا . . . ياعزيزي . . الم تقل لي بانك ستتركها الى يوم الاربعاء حتى اغسلها، واليوم هو يوم الاثنين فماذا حدث ؟».

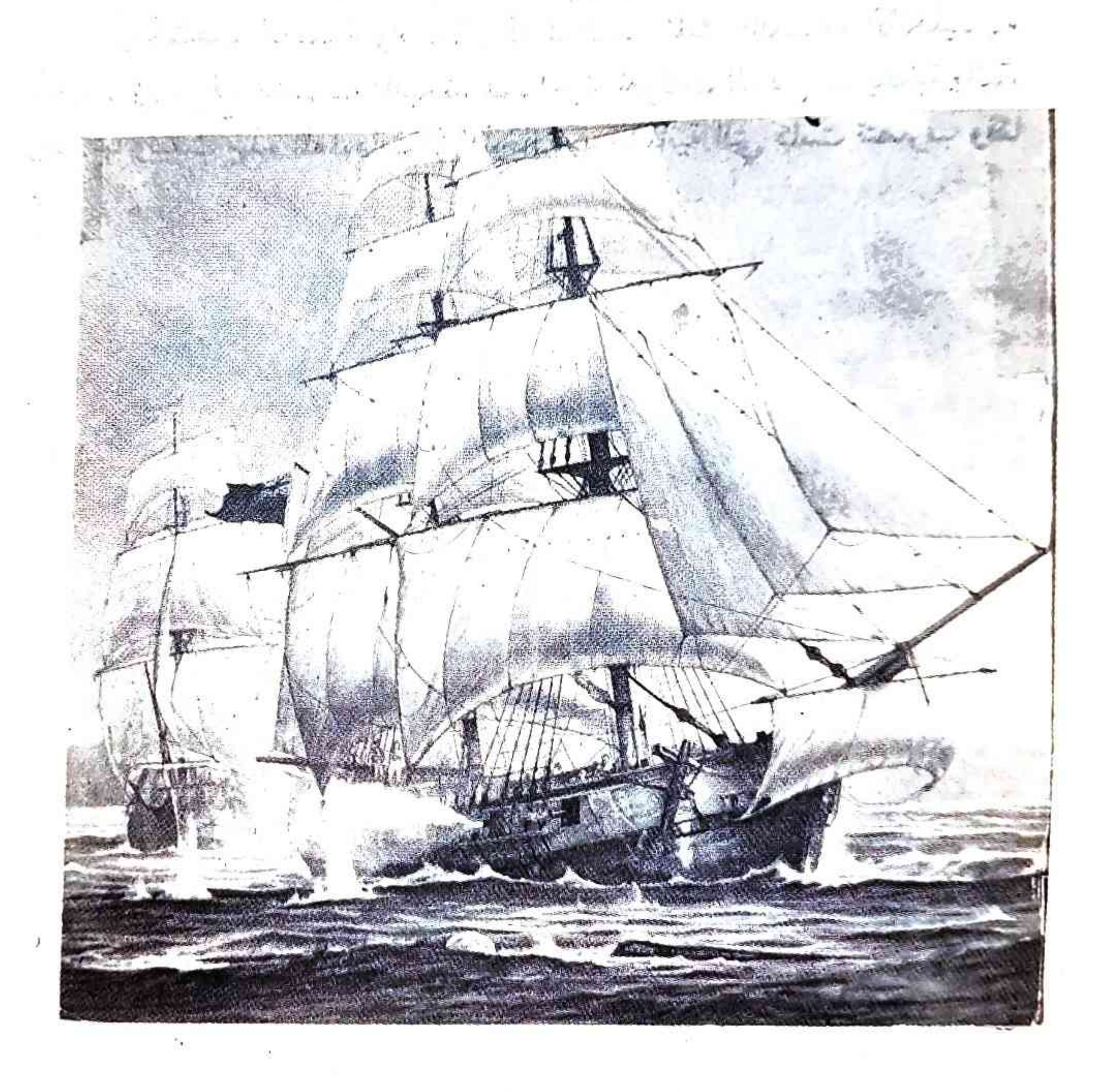
ورد الملاح يقول «اجل كان المتوقع ذلك ولكننا تلقينا اليوم اوامر بالسفر على الفور الى جهة لم تحدد بعد، الى ان تبدأ السفينة بالتحرك». وهنا قالت له العمة متظاهرة بالاسف «ان ثيابك في حالة يرثى لها من الوساخة وليس في مقدوري ان اغسلها لك الآن، فاخبرني الى اين تريد ان ابعث بها اليك ؟. وهنا اجاب الملاح اننا سنقلع في الساعة الخامسة من صباح غد، وآمل ان تستطيعي غسل ثيابي وارسالها الى بيت الملاحين حتى ولو في آخر هذا المساء !.

وهنا قالت العمة «انني سافعل المستحيل في سبيل ذلك» وبعد ان جلس الملاح برهة، احتسى خلالها قدحا من الشاي غادر العمة خارجا، وانهمكت العمة على الفور في غسل ثياب الملاح وتجفيفها وكيها، ومن ثم اوصلتها الى «بيت الملاحين» قبل ان يمضي الهزيع الاول من الليل وهكذا برت بوعدها.

وفي صباح اليوم التالي، وعندما كانت السفينة البريطانية التي يعمل فيها

ذلك الملاح على وشك ان تقلع من ميناء جبل طارق، قذفتها احدى الغواصات بطوربيد فلقها الى قسمين ثم سارعت تهوي الى قاع البحر.

وانكشفت العملية واضحة. لقد كانت تلك «العمة» الانكليزية الطيبة، في الواقع جاسوسة المانية تتسقط اخبار تحركات السفن البريطانية وانباء رحلاتها وتبعث بهذه المعلومات الى المخابرات الالمانية التي كانت تتصرف وفقا لها.



الفصل الثاني عشر

الشاب

البيروني اللبق

الشاب البيروتي اللبق !

نحن الآن في منتصف شهر ايار سنة ١٩٤١، وقد كادت الدائرة ان تدور على الحلفاء، الذين لم يبق منهم سوى بريطانيا وفرنسا الحرة، التي تمركزت في المستعمرات الفرنسية السابقة في افريقيا، وعلى الاخص في تونس والمغرب والجزائر. كانت الاندحارات المحيطة بالحلفاء تترى الواحد فيها تلو الآخر. فهذه اوربا الغربية كلها قد ركعت تحت اقدام هتلر، وها هي اليابان في الشرق قد استولت على معظم المستعمرات الانكليزية والفرنسية في آسيا، وراحت تتجه نحو الهند او القارة الهندية على وجه ادق، وهي اعظم مستعمرة بريطانية مضت عليها قرون وهي لم تزل تأن تحت وطأة الاستعمار الانكليزي البغيض، ويؤلف ابناؤها في كل حرب عالمية تقع، اعظم وقود لنيران تلك الحروب.

كان العراق العظيم قد انتفض في ذلك الشهر ثائرا وراح جيشه الفتي الشجاع المقدام يقارع الجيش البريطاني الذي سعى الى اعادة احتلال العراق مجددا مثلما فعل ذلك خلال الحرب العالمية الاولى. وكان «رومل» يقود الفيلق الالماني في افريقيا وهو يتقدم من نصر الى نصر حتى اصبح على ابواب الاسكندرية. اما في سوريا ولبنان فان الحكومة التي كانت تديرها هي حكومة فرنسية عميلة للالمان، اقيمت بعد سقوط فرنسا ودخول الالمان الى عاصمتها الجميلة باريس، تلك هي حكومة «فيشى» حيث كان الجنرال الالماني «دونتز»

يمثل حكومة فيشى في دمشق وبيروت ويشرف على كل صغيرة وكبيرة فيها، ويهيئ القوات العسكرية والاستعدادات الكبيرة للوقوف بوجه الهجوم الانكليزي الديغولي المتوقع على هذين البلدين العربيين، والذي اصبح حديث الناس في كل مكان، بعد ان مهد جواسيس الانكليز لهذا الهجوم بنشر الاشاعات الكثيرة عنه وعن اهدافه.

في يوم من ايام ايار ١٩٤١ وصل شاب لبناني الى حيفا حيث القوات الانكليزية ماتزال تسيطر على فلسطين، وتمهد السبيل لاقامة دولة اسرائيل، بما اخذت تمد به العصابات الصهيونية منذ اعلان الانتداب، من وسائل «القوة والتمركز. لم يكن في مظاهر ذلك الشاب اللبناني الذي هبط ميناء حيفا مايثير الريبة والظنون فلم تكن قسمات وجهه الضحوك مايدل على انه كان من المغامرين الخطرين. فقد كان رقيق العود، طويل القامة، هادى الاعصاب، قليل الكلام، يبعث منظره على الثقة به والاعتماد عليه. لقد جاء ذلك الشاب من بيروت، وهو يحمل في حنايا صدره كنزا من المعلومات القيمة عن الاوضاع السائدة في سوريا ولبنان، وعن الوضع العسكري فيهما، والاستعدادات التي يجريها الالمان هناك لمواجهة اي هجوم يقدم عليه الانكليز، بعد ان يتمكنوا من اخماد الثورة الوطنية في العراق.

اطلع النقيب «لاتينيه» ضابط الارتباط الديغولي في حيفا، على التقرير الذي قدمه اليه ذلك الشاب البيروتي، فادهشه ماوجد فيه من المعلومات الخطيرة، وقد سر للنجاح الذي اصابه ربيبه الشاب في مهمته التي بعث به الى دمشق وبيروت من اجلها. وما ان انتهى النقيب «لاتينيه» من قراءة التقرير حتى امسك بالهاتف وراح يتحدث بالانكليزية الى احد ضباط الاستخبارات الانكليزية ورجاه بان يحضر الى مكتبه على الفور.

ومرت فترة قصيرة واذا بالضابط الانكليزي يدخل الى مكتب الضابط الفرنسي فناوله لاتينيه التقرير الذي اعده الشاب وما ان اتم قراءته حتى اتصل هاتفيا بمركز القيادة العسكرية البريطانية العليا في القدس، وراح يتحدث الى احد الضباط الانكليز فيه. واذ انهى حديثه مع ذلك الضابط وضع سماعة الهاتف جانبا، وقال للضابط الفرنسى، وللشاب اللبناني، سوف نذهب الآن

سوية الى القدس لمواجهة العقيد لانه يريد ان يتعرف على الشاب ويتحدث اليه.

في الساعة الخامسة من اليوم التالي، كان الثلاثة في مكتب القيادة العسكرية البريطانية العامة في القدس، وقد انضم اليهم هناك كل من النقيب «ربيتون» والنقيب «فاسيه» ضابط الارتباط البريطاني بالبعثة الفرنسية، وضابط اخر برتبة مقدم. وبعد ان تحدث هذا المقدم الى الشاب قليلا اخبره بان القيادة قد عينت له احد الفنادق العربية في القدس لكي ينزل فيه وان عليه ان يحضر غدا في الساعة العاشرة الى «فندق ايدن» لكي يقابل مقدما له مركز مهم، ومن ثم يقابل العقيد مدير مركز القيادة.

في صباح اليوم التالي دخل الشاب اللبناني الى مكتب الضابط الفرنسي في القدس فاستقبله هذا وهش له ثم ادخله الى مكتب الضابط الانكليزي، ودهش الشاب وتلعثم لسانه حين راح يصافح في ذلك المكتب علي خان بن اغاخان زعيم الاسماعيلية، والذي كان آنذاك يحمل رتبة رائد في الجيش الانكليزي. وبعد ان تحدث علي خان الى الشاب عن المهمة التي سوف يكلف بها هو ورفاقه في بيروت، انبأه بانه سوف يقترح على القيادة الانكليزية اعطاءه خمسمائة جنيه في الشهر عن جميع المعلومات، كما يعطي له مبلغ الفي جنيه عن كل عمل يقوم به من الأعمال الاخرى من امثال نسف الجسور والقطارات وما شاكل ذلك وانهى علي خان حديثه مع الشاب اللبناني بان قال له انك سوف تقابل عند الظهر العقيد «سمسون» وارجو ان توفق بالعمل معه مثلما وفقت معي.

خرج الشاب من المكتب وطاف بالسوق واشترى بعض الحاجات الضرورية ثم عاد الى فندت ايدن قبل الساعة الثانية عشرة، ودلف الى القاعة الداخلية فيه واخذ مكانه غير بعيد عن الباب وهو ينتظر الرئيس الاعلى، ومع ان نظره لم يفارق الباب قط، وان احداً لم يدخل تلك القاعة التي كان ينتظر فيها، الا انه سمع شخصا يقف الى جانبه ويقول له على حين غرة «السيد اسليب ؟» فيرد الشاب اللبناني مجيبا: اجل انا هو.

ـ انا العقيد سيمسون!

ـ تشرفت ياسيدي

عقدت الدهشة لسان اسليب وراح يدور ببصره داخل الغرفة مندهشاً وهو يبحث عن الباب التي دخل منها العقيد الى الصالة لانه ليس لها سوى باب واحد كان يراقبها مراقبة شديدة وادرك العقيد ماكان يدور في خلده فابتسم وقال له «ان هناك بابا اخرى لاتراها العين!» انهالت الاسئلة من العقيد على الشاب، عن نفسه وآماله واهدافه من وراء المخاطرة بالعمل لحساب الانكليز، والشاب يرد على ذلك بالادعاء بانه من دعاة الدمقراطية والحرية، ومن محاربي الطغيان في كل بلد في العالم. وبعد ان الم العقيد ما بكل سمع ودعه وانصرف.

كان اسليب قد بدأ عمله لدى الاستخبارات البريطانية في الاشهر الاولى من سنة ١٩٤١، وقد اختار بنفسه رفاقه الذين كان يثق بهم، حيث شرعوا بممارسة الاعمال التخريبية في لبنان، من امثال قطع اسلاك الهاتف والبرق، ووضع العقبات في طرق المواصلات، وجمع الاخبار التي تتعلق بالاستعدادات الفرنسية والالمانية في سوريا ولبنان وايصالها الى القيادة الانكليزية في فلسطين.

وعندما وصل اسليب اول مرة الى بيروت قادما من فلسطين تنكر في صفة ضابط برتبة نقيب في قوات فيشي الفرنسية، فهبط الى مرفأ بيروت حيث ترسو احدى السفن الحربية التابعة لحكومة فيشي هناك، حيث اجتمع الى الملازم «برتو» ضابط المرفأ واستطاع ان يحصل منه على كل المعلومات الخاصة بالقطع الحربية العائدة الى حكومة فيشى في لبنان وعن حمولتها واسلحتها وحركاتها. ولم يكتف اسليب بهذا بل طلب الى احد رفاقه ان يعقد له موعدا يقابل فيه «بيير الجميل» رئيس منظمة الكتائب اللبنانية، فدله رفيقه ذاك الى صيدلية في ساحة الشهداء، واستبد به الخوف، اذ كيف يستطيع ان يتحدث الى الجميّل في امور خطيرة في مثل هذا المكان الذي لايبعد سوى خطوات قليلة من دوائر الشرطة، ومن سراي الحكومة، في الوقت الذي يدخل فيه الزبائن الى الصيدلية في كل لحظة، ولكن الشيخ بيير الجميل طمأنه على ذلك وطلب اليه ان يتحدث عما يريده من وراء هذا اللقاء.

وهنا قال اسليب للشيخ الجميل اني موفد من فلسطين لكي اعرف ما سيكون عليه موقف منظمتك في حالة وقوع هجوم من جانب الحلفاء على

سوريا ولبنان بقصد طرد الالمان واعضاء حكومة فيشي منهما. وبعد تأن رد بيير الجميل يقول، لابد من اخذ رأي الحزب في ذلك، وبعد ان اعرف شخصك الحقيقي ومهمتك التي جئت من اجلها وما عدا ذلك فانني اقول لك اننا يجب ان نبقى على وضعنا الراهن لكننا نرحب بما يريده الجنرال كاترو ولن نعارضه.

انتهت المقابلة مع الشيخ بيير الجميل فغادر اسليب الصيدلية حيث اجتمع بعد ذلك الى صديق اخر من اصدقائه تزود منه ببعض المعلومات عن تنقلات القوات الالمانية والفرنسية وغير ذلك من الامور المهمة، واذ ذاك غادر اسليب بيروت عائدا الى حيفا ليقدم تقريره الجديد عما سمعه ورآه، ويتصل مرة اخرى بالرائد علي خان والعقيد سمسون.

كانت المهمة التي ارادتها القيادة الانكليزية في فلسطين من اسليب هذه المرة اشد خطراً، واعظم اهمية وتأثيرا في مصير الالمان وحلفائهم الفيشيين في سوريا ولبنان. لقد عرض عليه الرائد علي خان هذه المرة ان يمتطي احدى الطائرات الانكليزية ويحمل معه كمية من المفرقعات ثم يهبط بالمظلة من تلك الطائرة ومعه المفرقعات التي يبلغ وزنها مائتي كيلو غرام الى مكان قريب من العاصمة بيروت حتى اذا ما هبط الى الارض ونجح في ذلك، ينبغي عليه بعدئذ ان يسلم تلك المفرقعات الى ارمني، يقيم في منطقة «الدورة» من بيروت، وكان الغرض من هذه المفرقعات استعمالها في نسف صهاريج النفط ومستودعاته.

اقلع سرب من الطائرات الانكليزية تعدادها ست طائرات نحو لبنان بعد منتصف الليل وكان اسليب في احدى الطائرات ومعه مظلة الهبوط والمواد المتفجرة. وحين اشرفت الطائرات عند الساعة الرابعة صباحا على بيروت اخذت الطائرات تنفصل احداها عن الاخرى وتتجه الى نقاط مختلفة، بينما اتجهت الطائرة التي تقل اسليب الى مكان الهبوط المحدد لها، وفعلا هبط اسليب بالمظلة سالماً ومعه الطرد الذي يحمل المفرقعات، وذلك خلف «دير الصليب» بجوار بيروت واذ لم يلمحه احد من الناس هناك، سارع اسليب فاخفى طرد المتفجرات في حفرة هناك، حيث توجه مسرعا بعد ذلك الى منطقة الدورة للبحث عن «بارسنغ» الارمني الذي انزله احد الطيارين الانكليز قبل

اسبوع. وبعد لأي استطاع اسليب ان يعثر على بارسنغ، ويسلمه الطرد وما فيه. وبعد ان اكمل اسليب مهمته الجديدة غادر عائداً الى حيفا في اليوم التالي، وقبل ان يبدأ الهجوم الانكليزي على سوريا ولبنان بساعات، حيث تقرر موعد ذلك الهجوم في اليوم الثامن من شهر حزيران سنة ١٩٤١.

بيار الجميل

الفصل الثالث عشر

عوامة أمبابه !!

عوامة «امبابه» !.

قبل ان تندلع نيران الحرب العالمية الثانية في ايلول سنة ١٩٣٩، اقدمت احدى الفنانات المصريات الشهيرات، على شراء عوامة كبيرة وانيقة تقع في ناحية امباية، على شاطئ النيل، للاقامة فيها، تقليداً لما كان يفعله كبار رجال الاقطاع والاثرياء من باشوات مصر في تلك الايام. ولقد اقامت تلك الفنانة في عوامتها تلك الى ان انفجرت الحرب وغدت الاقامة في مثل هذه العوامات، غير مأمونة العواقب، ولذلك تركت العوامة وسكنت احد البيوت في القاهرة وعرضت عوامتها تلك للايجار. وفي احد الايام تقدم اليها ضابطان من ضباط الجيش الانكليزي واستأجرا تلك العوامة ببدل ايجار طيب لمدة سنتين.

كان احد الضابطين يتوجه بنفسه في رأس كل شهر الى بيت الفنانة ليدفع لها بدل الايجار الشهري وبعد ان اوشك العام الاول من مدة الايجار ان ينتهي، اقبل عليها في الاول من شهر كانون الثاني سنة ١٩٤١ ضابط آخر غير الضابطين اللذين استأجرا منها العوامة، فدفع لها بدل الايجار، وانبأها بان الضابطين قد نقلا الى السويس وانه صديق لهما وقد حلّ محلهما في سكنى العوامة بنفس بدل الايجار والشروط التي اتفقا معها اول الامر. ولما لم تجد الفنانة مايضيرها فقد وقعت على عقد جديد مع الضابط الجديد ولمدة سنتين ايضا. لاحظ جيران العوامة ان المستاجر الجديد يعيش لوحده في العوامة، وان احدا لايزوره سوى

سيدة حسناء انيقة الملبس تقبل في الساعة الخامسة من مساء كل يـوم، تقود سيارة صغيرة بنفسها، فتنزل منها ثم تدلف الى العوامة راسا وعلى عجل، وبعد ان تمكث بضع دقائق تغادر العوامة وتركب سيارتها عـائدة من حيث اتت. ولكن الجيران لاحظوا ايضا انه بعد ان تغادر تلك السيدة العوامـة بدقـائق معدودة يرتفع صوت المذياع بشدة في العوامة، ويظل على هذه الحالة حتى ساعة متأخرة من الليل. اما اثناء النهار فان السكون يخيم على العوامة تماما، لان ساكنها يخرج منها عند الصباح فلا يعود الا عند الساعة الرابعة مساء.

ومع ان الجيران قد احتاروا في امر ساكن العوامة، وفي الحسناء التي تتردد عليه مساء كل يوم، الا انهم لم يهتمـوا بذلـك، قدر اهتمـامهم بالضجيـج والازعـاج الذي يحـدثه المـذياع بصـوته العـالي الصاخب الـذي كان يقض مضاجعهم، ويحرمهم من لذة النوم في الليل. فكر الجيران في الامر وقلبوه على مختلف الوجوه، واخيرا انتهوا الى قرار بشأن ذلك، هو ان يذهبوا الى الفنانة صاحبة العوامة وان يبسطوا لها شكاتهم. استمعت الفنانة باهتمام الى ماكانوا يتحدثون به ثم وعدتهم بانها سوف تعرض للمستأجر ماسمعته منهم عندمـا يقدم اليها اول الشهر لدفع بدل الايجار.

وحين وفد الضابط في اول الشهر قصت عليه الفنانة شكوى الجيران من ضجيج المذياع، فكان جوابه على ذلك ان قال بانه حر في التصرف، وانه لايأبه لجيرانه وعليهم ان يفعلوا مايشاؤون. واستمر الضابط في استعمـال المذيـاع بذلك الصوت المزعج غير مهتم بما يسببه ذلك من ازعاج ومضايقة للجيران وعلى الاخص اثناء الليل.

وفي احدى الليالي ثار احد الجيران فخرج من داره الى العوامة، لكي يتحدث الى ساكنها في امر ذلك الضجيج، وارتقى سلم العوامة في هدوء حتى وصل الى الطابق الأعلى فيها، وهناك رأى غرفة مضاءة بالانوار فاقترب منها ونظر من ثقب الباب فاذا به يرى الضابط جالساً امام مائدة عليها جهاز ارسال لاسلكي وهو منهمك في استعماله والى جانب الجهاز وضع المذياع الذي كان صوته يعلو صاخبا.

كان ذلك الجار مهندسا لاسلكيا، ولذلك لم يصعب عليه فهم الحقيقة،

لقد ادرك بكل بداهة ان ذلك الضابط من الجواسيس، وانه كان يستعين بصوت المذياع العالي لكي يخفى صوت جهاز الارسال عن الجيران، وان تلك السيدة التي كانت تتردد عليه انما هي شريكة له في عمله الخطير ذاك.

قام ذلك المهندس بابلاغ ادارة المباحث المصرية بما عرفه عن الضابط الذي يسكن العوامة، ولذلك وضعت تلك العوامة وكل من يتردد عليها تحت المراقبة السرية المتقنة، وابلغ الامر الى القيادة البريطانية فتعهدت نفسها بامر تلك المراقبة.

ولقد اتضحت الحقيقة فيما بعد عن ذلك الضابط الانكليزي، فقد ظهر بانه كان من الضباط الالمان الذين كانوا يجمعون المعلومات ويرسلونها الى الجيش الالماني. وبعد ظهر احد الايام هاجم ضباط المخابرات البريطانية العوامة، فالقوا القبض على الضابط الانكليزي المزيف، كما ضبطوا معه اثنين من ضباط الجيش المصري، وانتظر ضباط المخابرات في العوامة الى ان اقبلت السيدة التي كانت تتردد عليها مساء كل يوم فاعتقلوها مع البقية ونقلوا جهاز الارسال واحيل المتهمون الى التحقيق.

كشف التحقيق الدقيق عن براءة الضابطين المصريين اللذين تعرفا الى الضابط في احد النوادي العامة، وتوثقت الصلة به حيث دعاهما الى العوامة عدة مرات. كان احد الضابطين المصريين ضابطا في سلاح الطيران المصري يدعى «حسين عبدالعظيم» وكان هذا صديقا حميما للضابط الطيار «سعودي حسين» الذي هرب في طائرة حربية من طائرات السلاح الجوي المصري، مع مساعده العريف «رضوان محمد سالم» من مصر في سنة ١٩٤٠ ولم يعرف مصيرهما بعد ذلك، وقد ترددت الاشاعات عن لجوئهما الى المانيا. كان تردد الطيار حسن عبدالعظيم على ذلك الضابط الجاسوس، بقصد ان يحصل منه على معلومات عن الطيار العربي الهارب وهل هو في المانيا حقا ام انه غير موجود فيها.

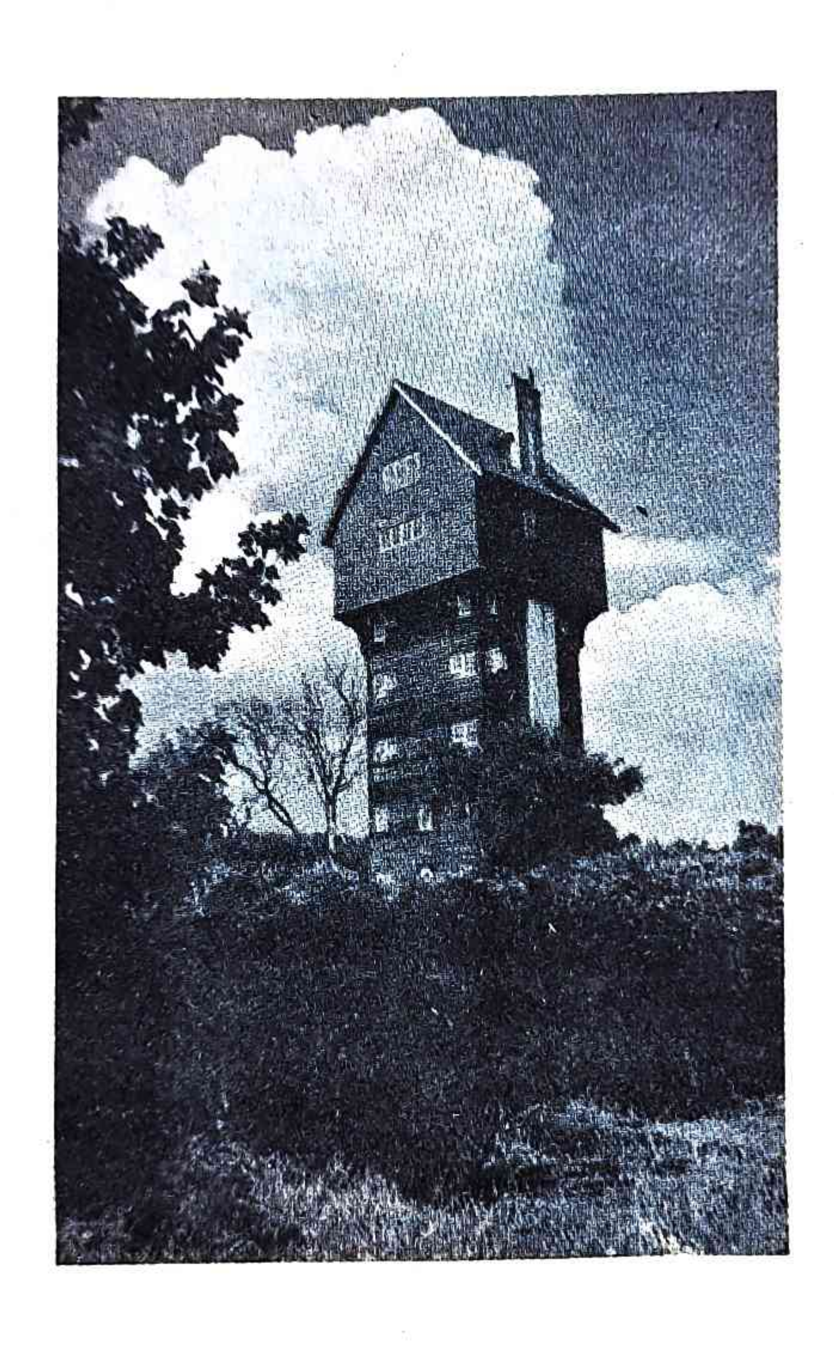
واما الحسناء التي كانت تتردد على العوامة كل مساء فهي بولونية الاصل تدعى «لوبسكا رامسكي» وكانت تعاون الجاسوس في عمله، لانها كانت تعمل كاتبة على الآلة الطابعة في مكتب المباحث الحربي الانكليزي العام في القاهرة،

وكانت قد تعرفت الى ذلك الجاسوس في برلين قبل نشوب الحرب، حتى اذا ماالتقت به في القاهرة عادا الى تعارفهما القديم، وشرعت بالعمل معه في مهمته السرية تلك، وكانت تفضي اليه بكل ماتحصل عليه من معلومات نتيجة عملها في المكتب واختلاطها مع الضباط البريطانيين، عندما تفد الى العوامة كل مساء.

كانت لهذا الجاسوس الخطير قصة مملوءة بالالغاز والمخاطر والمغامرات. فقد كان ضابطاً في الجيش الالماني، وكان يدعى «هانز غيبر» وصل الى مصر قادما من المانيا في سنة ١٩٤٠ في طائرة خاصة تحمل شارة سلاح الجو البريطاني وهبط بها ذات مساء عند صحراء الاهرام، ثم تركها وتسلل الى القاهرة، وفي صباح اليوم التالي عثرت القوات البريطانية على تلك الطائرة فلم تعرف سرها ولا سر الطيار الذي قادها وهبط بها هناك. واستطاع «غيبر» ان يلتحق باحدى فرق الجيش البريطاني في القاهرة بصفة ضابط من ضباطها ثم تعرف الى الضابطين البريطانيين اللذين استأجرا العوامة من الفنانة المصرية حتى اذا ما تم نقلهما الى السويس، استاجر العوامة بدلا منهما واقام فيها شبكة لاسلكية شرع منها يبث مايحصل عليه من معلومات الى الجهات الالمانيّة.

ولقد كشف التحقيق اكثر من هذا الامر خطورة، ذلك ان «هانز غيبر» كان قد وفد على مصر سنة ١٩٣٤، وتطوع في الجيش المصري، باسم «حسين جابر» من اهالي «شبرا» وقدم مستندات رسمية تثبت شخصيته تلك. وكان يتكلم العربية الفصحى واللهجة المصرية بطلاقة تامة لامجال للشك فيها؛ ولقد قبل تطوعه في الجيش المصري، وتم الحاقه بالقسم الطبي في الجيش المصري حيث امضى سنوات التطوع الخمس في ذلك القسم، ومن ثم سرح بعد انتهاء الخدمة وحين قامت الحرب العالمية الثانية اراد حسين جابر ان يلتحق مرة اخرى بالجيش المصري، لكنه مالبث ان غادر مصر وكر راجعا الى المانيا، الى ان عاد ثانية في سنة ١٩٤٠ بطائرته الانكليزية المزيفة.

قضت القيادة الانكليزية باعدام هانز غيبر، والحكم بالسجن على كاتبة الالة الطابعة لوبسكار رامسكي، وفصل الضابطين المصريين من الجيش وبذلك انتهت فصول هذه المسرحية الغريبة.



الفصل الرابع عشر

سر آلة التصوير !!

سر آلة التصوير!

قضت الضرورة ان يتصالح الاعداء، وان يتحالفوا، بعد ان تعرضوا لعدو مشترك نهض لافتراسهم الواحد تلو الآخر، وعلى هذا الاساس قام التحالف البريطاني الامريكي السوفياتي، خلال الحرب العالمية الثانية، بعد ان حطم هتلر اوصال اوربا الغربية ثم تحول بجحافله من الوحوش البشرية الى اوربا الشرقية فالاتحاد السوفياتي العدو الاصيل والحقيقي لالمانيا النازية.

وقبل ان يقوم هذا التحالف الثلاثي، سبقه تحالف آخر من نوع مختلف، انه تحالف بريطانيا وامريكا، مع الجنرال لسيمو شيان كاي شك زعيم الصين في ذلك الوقت والذي لم تستطع قواته الصمود امام اجتياح اليابانيين لمقاطعات شاسعة من الاراضي الصينية واحتلالها، اضافة الى «الهند الصينية» اي فيتنام، ولاوس وكمبوديا، ومن ثم مستعمرات بريطانيا في تايلند، والملايو وبورما، والتقدم الى حدود القارة الهندية.

في شهر كانون الاول سنة ١٩٤٣ اجتمع اقطاب هذا التحالف الجديد، في القاهرة وفي فندق «مينا هوس» في سفح الاهرام لدراسة خطط الاقدام على فتح جبهة ثانية في اوربا. كان المجتمعون هم كل من روزفلت رئيس جمهورية الولايات المتحدة الامريكية، وونستون تشرتشل رئيس وزراء بريطانيا، وشان كي شك زعيم الصين آنذاك.

ولقد احيط وصول هؤلاء الاقطاب الثلاثة الى القاهرة بالكتمان الشديد جدا، ولم يعرف به الناس الا قبل ان ينتهي اجتماعهم الخطير بساعات قلائل، واتخذت القيادة البريطانية الاحتياطات المشدد بالتعاون مع الشرطة المصرية، لضمان سلامة الزعماء الثلاثة، فحولت المنطقة المحيطة بالاهرام الى منطقة عسكرية يحرم على الجميع الدخول اليها، وبث في ارجائها الالوف من الحراس الاشداء اليقظين.

وحين انتهت اجتماعات المؤتمر بسلام وتحدد موعد عودة الاقطاب الثلاثة الى بلادهم، سمحت القيادة البريطانية لبعض مراسلي الصحف بالدخول الى منطقة الاهرام، والتقاط بعض الصور للزعماء الثلاثة، وكان من بين هؤلاء المراسلين اربعة من الصحفيين الانكليز، الذين كسبوا ثقة القيادة والذين كانوا يقيمون في احد فنادق القاهر، حيث قامت سيارة بريطانية عسكرية بنقلهم من الفندق الذي كانوا ينزلون فيه الى فندق «مينا هوس» في الاهرام لانتظار خروج الاقطاب الثلاثة وهم في طريقهم الى المطار، والتقاط الصور المطلوبة.

غير ان الذي حدث هو ان الزعماء الثلاثة قد غادروا مصر دون ان يراهم اولئك المراسلون الذين اختارتهم القيادة البريطانية ومن دون ان تلتقط لهم الصور فكيف حدث ذلك؟. كانت الانسه «دروثي دوغيان» وهي واحدة من المراسلين الانكليز الاربعة المختارين، قد اشتهرت بانها كانت أية من ايات الجمال، والرشاقة والنباهة، وقد نالت اعجاب زملائها الآخرين، ومن بينهم «هاري كوفمان» الذي احبها حبا غامرا فتحول ذلك الحب الى اعجاب والى عقد الخطوبة بينهما.

وفي تلك الليلة التي كان مقررا ان يغادر فيها الاقطاب الثلاثة عند الفجر ارض مصر، سهرت دورثي مع خطيبها وبقية زملائها واخذت تساقيهم الشراب وتنادمهم الى ان انتصف الليل، واذ ذاك دلف كل واحد منهم الى غرفته ليهيئ آلة التصوير لديه، وليستريح بعض الوقت. ولكن «دورثي»

صممت على ان لا تدع زملاءها ينامون فسرعان ما صعدت الى غرفهم، وطرقت الابواب عليهم وايقظتهم، ودعتهم الى مواصلة السمر والمنادمة في صالة الفندق وقد وافق الكل على ذلك فورا، وجلسوا الى مائدة الشراب يشربون ويسمرون حتى انقضت ساعة من الوقت.

وعلى حين غرة نهضت دورثي من مكانها واخذت المصعد الى غرفتها للاتيان بشئ ما. ومع انها لم تغب طويلا الا ان خطيبها «هاري» قلق عليها فتبعها ولكن من مصعد آخر غير المصعد الذي استخدمته هي ولذلك فلم يقابلها عندما هبطت الى الصالة من جديد. وما كادت تصل وتسأل عن خطيبها حتى دوى انفجار شديد زلزل جدران الصالة التي كانوا يجلسون فيها. ساد الذعر جميع الحاضرين، واشتد قلق دورثي اكثر من ذي قبل، فهرعت صاعدة الى الطابق الاعلى الذي وقع فيه الانفجار، فاذا بها تواجه بتحطم الغرفة المخصصة لزميلها «تومي ويلز» تحطما تاما والى جانبها جثة حبيبها «هاري» وقد تمزقت وتشوهت بفعل الانفجار.

مضت بضع ساعات على الحادث، وقد استطاعت دورثي نفسها ان تكشف اسراره الرهيبة. كان ابوها انكليزيا قحاً، لكن امها كانت المانية الاصل. وعندما نشبت الحرب العالمية الثانية جند ابوها في الاسطول الحربي الانكليزي، في حين ذهبت امها قبل ذلك في زيارة الى اهلها في مدينة «كولون» في المانيا، وبذلك تعذرت عودتها الى انكلترا. واذ بقت «دورثي» وحيدة، وكانت تعمل محررة في جريدة «الديلى تلغراف» اللندنية، فقد تطوعت للعمل في الجيش البريطاني، والحقت ضمن المراسلين الصحفيين الانكليز الذي كانوا يعملون في الشرق الاوسط وحين كانت دورثي تقيم في الفندق في القاهرة، هبط عليها بغتة في احد الايام قس من القساوسة الذين يعملون في الجيش البريطاني، واذ خلا بها اطلعها على سره، فاذا به هو خالها وقد جاء من المانيا سرا متنكرا في زي قس عن طريق تركيا للعمل لصالح المحور. وبعد ان اتفق معها على ان تزوده بكل ما يصل الى يديها من اسرار ومعلومات عسكرية، ووعدته بان تفعل ذلك، غادرها واختفى عن الانظار بعد ان أطمأن بانها لن

تخونه وتخون امها الالمانية.

كان الاتفاق الذي عقدته دورثي مع خالها هو ان تمده في كل اسبوعين بتقرير عما تمكنت من الحصول عليه من معلومات، وان لا تكتب هذا التقرير على الورق، وانما تطرزه بالابرة وبالخيوط مختلفة الالوان على ثيابها طبقا للشفرة التي اتفقت عليها مع خالها. وكان رسولها الى خالها الذي يحمل التقرير اليه غلام هندي كان يعمل في مغسل الفندق الذي كانت تنزل فيه.

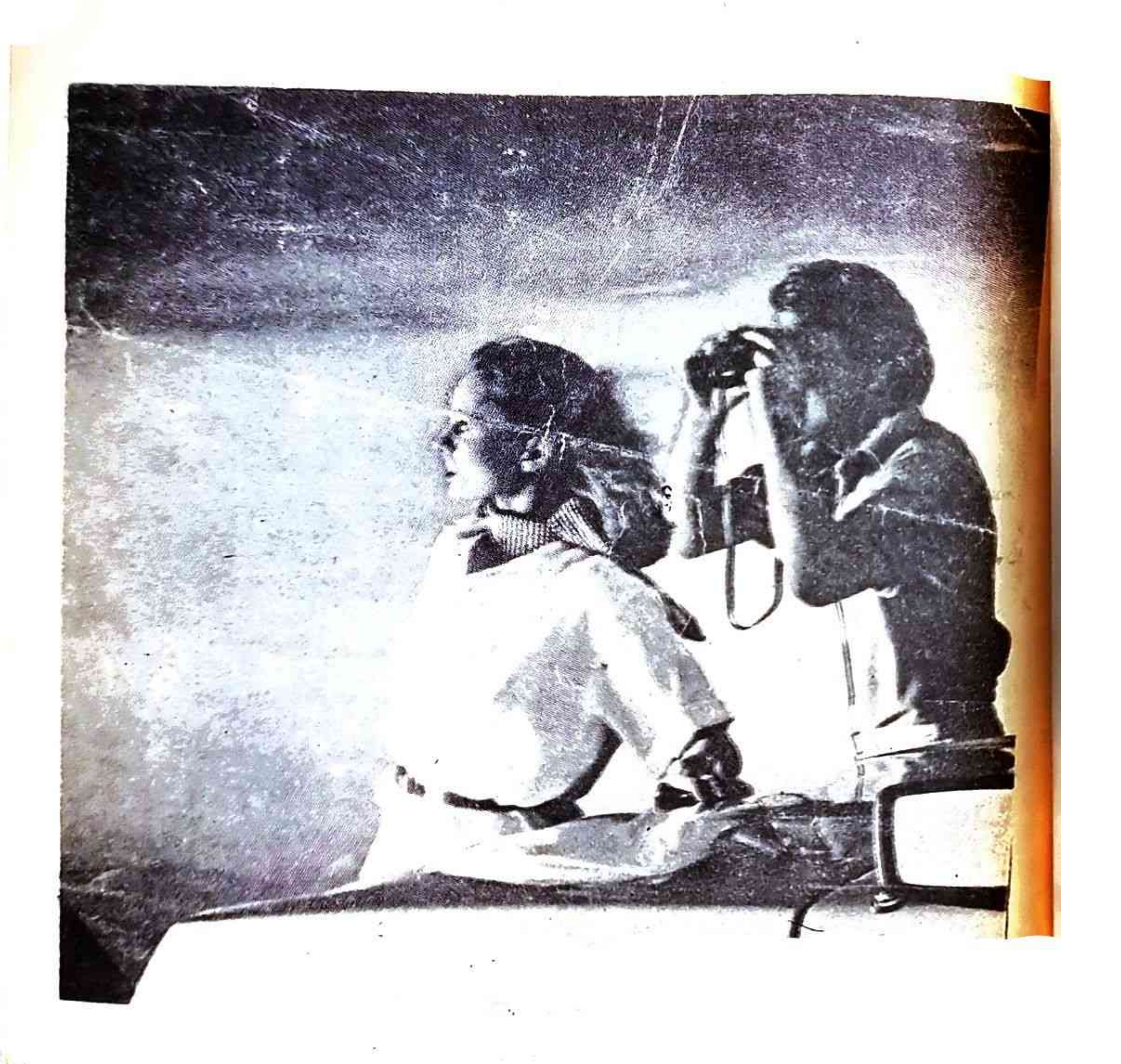
وحين انتخبت دورثي مع المراسلين الثلاثة الآخرين للقيام بمهمة تصوير الزعماء الثلاثة في سفح الاهرام، اعد خالها الخطة التي رسمها للقضاء على هؤلاء الزعماء بضربة واحدة. كان ينبغي على «دروثي» ان تنتظر الى ان يعد احد زملائها آلة تصويره فتغافله، وتسرق تلك الآلة، ثم تضع بدلا منها الة تشبهها تمام الشبه، فيها كمية من مسحوق قليل الوزن لا يشعر المصور بثقله فيشتبه في الامر. كذلك كان المقرر ان تظل دورثي وزميلها «هاري» عاكفين على الشراب حتى آخر وقت، بحيث يبدو عليهما السكر، فيتركهما زميلاهما وينطلقان بالتيهما الى حيث يخرج الاقطاب الثلاثة من الفندق في طريقهم الى المطار.

....

اقدمت دورثي على تنفيذ خطة خالها بكل براعة، فاستبدلت الة تصوير زميلها «تومي ولز» بتلك الآلة المدمرة التي تحمل المسحوق في جوفها، والتي ما ان يضغط على زرها، حتى تنفجر وتقتل من يحملها ومن تكون موجهة نحوهم من الناس.

غير ان الاقدار ارادت مصيرا آخر غير المصير الذي خططه ذلك القس الزائف. فعندما صعدت دورثي الى غرفة تومي واستبدلت الة تصويره بالالة المدمرة، تبعها خطيبها هاري، فدخل غرفة تومي خطأ بدلا من غرفته هو، ونظرا لانه كان يترنح من شدة السكر فقد اصطدم بالمائدة التي وضعت عليها آلة التصوير المهلكة، فسقطت على الارض وانفجرت في الحال وقضت على هاري نفسه وعلى غرفة تومي برمتها.

كانت دورثي هي التي ادلت بهذه المعلومات امام لجنة التحقيق بكل هدوء وثبات، وراحت تصر على اللجنة بان تحكم عليها بالموت، لانها لا تريد ان تحيا بعد مصرع حبيبها، وفعلا قضت اللجنة باعدامها ونفذ الحكم فورا، في حين استطاع خالها القس الزائف والغلام الهندي ان يهربا في الوقت المناسب، دون ان يعثر لهما على اثر بعد ذلك.



هذا الكتاب

كانت البلاد العربية قبل بدء الغزو الاوربي لها في القرن الخامس عشر وما تزال تعتبر من المسارح المهمة لاعمال التجسس التي تمارسها الدول الطامعة فيها غربية كانت ام شرقية ، اوربية ام آسيوية .

وقد تفاقمت عمليات التجسس هذه بصفة اخص قبيل الحربين العالميتين الاولى والثانية او خلالها .

ان هذا الكتاب على صغر حجمه يروي قصصاً مثيرة عن عمليات التجسس في البلاد العربية وعلى وجه التحديد في العراق وسوريا ولبنان وفي مصر ، ويكشف عن الصراع الذي ينشب عادة بين مختلف الجواسيس حسب انتماءاتهم وخدمتهم للدول المتنافسة والمتحاربة .

ولذلك نقول بكل ثقة انه كتاب جدير بالقراءة ولسوف نتبعه بكتب اخرى مماثلة .

منشورات دار العصور / بغداد

السعر / ٦٠٠ ر١

صمم الغلاف ليث متي